دَلالاتُ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ في القُرآنِ الكَرِيمِ عِنْدَ البِقَاعِيِّ (ت ٨٨٥هـ)

(الجزء الاول)

د. وائل عبد الأمير الحربي
كليّة الآداب - جامعة بابل

يتناول البحث، دلالات التذكير والتأنيث في القرآن الكريم عند أحد أعلام التفسير في القرن التاسع الهجري، وهو البقاعي. وقد اتخذ البحث منهجاً يقوم على خمسة محاور. قام المحوران الأول والثاني بوظيفة التمهيد، إذ عرّف الباحث في المحور الأول بالبقاعي وكتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور). و تحدث في المحور الثاني عن التذكير والتأنيث وضوابط كل منهما في العربية. ثم انصبّ الكلام في المحورين الثالث والرابع على موضوع هذا البحث وقد درس الباحث في هذين المحورين اكثر من خمسين آية كريمة، وجّه البقاعي التذكير أو التأنيث فيها توجيها دلالياً جديداً.. ومن أجل الوقوف على جِدّة هذه الدلالات، رجع الباحث الى أهم كتب معاني القرآن وتفسيره لتمييز موضع قراءة البقاعي الدلالية من قراءات اللغويين والمفسرين السابقين. ويأتي المحور الأخير متمثلاً بالخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل الباحث اليها. ونظراً لطول البحث آثرت المجلة تجزئته على قسمين. ننشر في هذا العدد جزءه الأول.

فحوى البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

البِقَاعِيُّ وَكِتَابُهُ (نَظْم الدُّرَر):

البِقَاعِيُّ: هُوَ إِبْرَاهِيمُ بنُ عُمَر بن حَسن الرُّبَاط بن عَلِيّ بن أَبي بَكر البِقَاعِيّ الشَّافِعِيّ، برهَان الدِّين أَبُو الْحَسَن، لُغَويٌّ وَمُفَسِّرٌ وَفَقِيهٌ وَمُحَدِّثٌ وَحَافِظٌ وَأَدِيبٌ وَعَرُوضِيٌّ[1]. وُلِدَ بقَرية خربة رُوحا من عَمل البَقَاع[2] في سُورية[3]. وَمنهَا جَاءَتْ نِسْبَةُ (البِقَاعِيِّ) الّتي عُرِفَ وَاشْتُهِرَ بِهَا.

أَخَذَ العِلْمَ عَن وَالِده، فَحَفِظَ القُرآنَ الكَرِيمَ، وَدَرَسَ الفِقْهَ وَعُلومَ الدِّين. وَرَحَلَ البِقَاعِيُّ إِلى مَدينَة القُدْس، سَنَة (٨٣٢ هـ) طَلَبًا لِلعِلْم، وَدَرَسَ عَلَى أَيْدِي عُلَمَائِهَا، وَمِنْهُم الشَّيخُ العِزُّ بنُ عَبْد السَّلام المَقدسيّ (ت٨٤٦ هـ)، ثُمّ انتَقَلَ إِلى مَدينَة القَاهِرَة، وَأَخَذَ فِيهَا عَن ابن حجر العَسقَلانيّ (ت٨٥٢هـ) ثُمَّ رَحَلَ مَعَ أُستاذِهِ العَسقَلاني إِلى مَدينَة حَلب سَنَةَ (٨٦٣هـ)، فَسَمِعَ من عُلَمَائِهَا، كَمَا ارْتَحَلَ إِلى مُدُنٍ أُخْرَى طَلَبًا لِلعِلْم مِنْهَا: دِمَشْقُ وَالقُدْسُ وَالخَلِيلُ وَحِمصُ وَالطَّائِفُ وَالمدينَةُ المنَوَّرَة ثُمَّ رَجَعَ إِلى مَدينَة القَاهِرة[4]، وَبَعْدَهَا عَادَ إِلى دِمَشْقَ حَيْثُ تُوفِّيَ لَيلَةَ السَّبتِ الثَّامِنَ عَشَرَ من رَجب سَنَةَ (٨٨٥ هـ)[5].

وَقَد تَرَكَ تُرَاثًا عِلْمِيًّا مُهِمًّا، يَتَمَثَّلُ في مَا خَلَّفَه لَنَا من كُتُبٍ قَيِّمَة، تَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ كَعْبِه وَطُولِ بَاعِه في عُلوم اللُّغة العَرَبيَّة وَتَفْسِير القُرآن الكَرِيم، وَقَد وَصَفَه الشَّوكَانيُّ (ت١٢٥٠هـ) بِأَنَّهُ: ((بَرَعَ في جَمِيع الْعُلُوم وفَاقَ الأَقرانَ،... ، وَأَنَّه من الْأَئِمَّة المتقنينَ المتَبَحِّرينَ في جَمِيع المعَارف)). وَمِمَّا يَشْهَدُ لَهُ بِهَذِه المنزلَة تَصَانِيفُهُ الكَثِيرَةُ، وَمِنهَا: نَظْمُ الدُّرَر في

(١) ينظر: الضوء اللامع: ١/ ١٠١، نظم العقيان: ٢٤، وكشف الظنون: ٢/ ١٩٦٢، والبدر الطالع: ١/ ١٩، والأعلام: ١/ ٥٦، ومعجم المؤلفين: ١/ ٧١.

(٢) ينظر: الضوء اللامع: ١/ ١٠١، طبقات المفسرين للأدنه وي: ٣٤٧، ومعجم المؤلفين: ١/ ٧١.

(٣) ينظر: الأعلام: ١/ ٥٦.

(٤) ينظر: الضوء اللامع: ١/ ١٠١ -١٠٢، ونظم العقيان: ٢٤، والبدر الطالع: ١/ ٢٠.

(٥) ينظر الضوء اللامع: ١/ ١٠٧، وديوان الإسلام: ١/ ٢٥٤، والبدر الطالع: ١/ ١٩، والأعلام: ١/ ٥٦، ومعجم المؤلفين: ١/ ٧١.

تَنَاسُبِ الآيَاتِ وَالسُّوَرِ، وَمَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ، وَالقَولُ المفِيدُ فِي أُصُولِ التَّجوِيدِ، وَسِرُّ الرُّوحِ، وَعُنوانُ الزَّمَانِ فِي تَراجِمِ الشُّيوخِ وَالأَقرانِ، وَالنُّكَتُ عَلَى شَرْحِ أَلفِيّةِ الْعِرَاقِيّ، وَدِيوانُ شِعْرٍ، وَغَيرُ ذلك[٦].

وَيَدرسُ هَذَا البَحْثُ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى- دَلالاتِ التَّذكيرِ وَالتَّأنيثِ فِي أَحَدِ كُتُبِ البِقَاعِيِّ، وَهُوَ كِتَابُه المسَمَّى بِنَظْمِ الدُّرَرِ الَّذِي حَظِيَ بِمَكَانَةٍ مُتَمَيزَةٍ فِي تُرَاثِ هَذَا العَالِمِ؛ لأَنَّه تَضَمَّنَ خُلاصَةَ فِكْرِه وَعُصَارَةَ عِلْمِه. وَقَد نَبَّهَ بَعْضَ مَن تَرْجَمَ له عَلَى عِنَايَةِ هَذا الكِتَابِ بِأَسرَارِ التَّعْبِيرِ القُرآنِيِّ؛ فَقَد وَصَفَه حَاجي خَلِيفة (ت ١٠٦٧هـ) بِالقَولِ: ((وَهُوَ كِتَابٌ لم يَسْبِقْه إِلَيه أَحَدٌ، جَمَعَ فيه: مِن أَسْرَارِ القُرآنِ، مَا تَتَحَيَّرُ منه العُقُولُ))[٧]. وَأَشَارَ الشّوكانيُّ إِلى قِيمَةِ هَذا الكِتَابِ، وَمَا يَمتَازُ بِهِ مِن استِيعَابٍ لِلْعِلْمِ وكَشْفٍ لِلمُشْكِلاتِ الَّتي لا يَجِدُ لَهَا جَوَابًا شَافِيًا فِي كَثِيرٍ مِن الكُتُبِ؛ قَالَ: ((وَمَن أَمْعَنَ النَّظَرَ فِي كِتَابِ المتَرجَم لَهُ فِي التَّفْسِيرِ الَّذِي جعله فِي المُنَاسَبَةِ بَينَ الآيِ والسُّور عَلِمَ أَنَّه مِن أَوعِيةِ الْعِلمِ المفرطِينَ فِي الذَّكاءِ الجَامعِينَ بَيْنَ عِلْمَي الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ، وَكَثِيرًا مَا يُشْكِلُ عَلَيَّ شَيْءٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَأَرْجِعُ إِلى مُطَوَّلاتِ التَّفَاسِيرِ وَمُختَصَرَاتِهَا فَلا أَجِدُ مَا يَشْفِي وَأَرجِعُ إِلى هَذَا الْكِتَابِ فَأَجِدُ مَا يُفِيدُ فِي الْغَالِبِ))[٨].

التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ فِي العَرَبِيَّةِ: يَرَى اللُّغَوِيُّونَ العَرَبُ أَنَّ التَّذْكِيرَ أَصْلٌ وَالتَّأنيثَ فَرْعٌ عنه، وَلِذَا احتَاجَ هَذا الفَرعُ إِلى عَلامَةٍ[٩]. وَعَلامَةُ التَّأنيثِ فِي العَرَبِيَّةِ عَلَى

(٦) نظم العقيان: ٢٤، وطبقات المفسرين للأدنه وي: ٣٤٨، والأعلام: ١/ ٥٦، ومعجم المؤلفين: ١/ ٧١، وكشف الظنون: ٢/ ١٩٦٢.

(٧) كشف الظنون: ٢/ ١٩٦٢.

(٨) البدر الطالع: ١/ ٢٠.

(٩) جاء في: كتاب سيبويه: ٣/ ٢٤١: ((وإنما كان المؤنث بهذه المنزلة ولم يكن كالمذكر لأن الأشياء كلَّها أصلها التذكير ثم تختصَّ بعد، فكل مؤنث شيءٌ، والشيء يذكَّر، فالتذكير أول))، وفي: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٦٥: ((أعلم أن المُذكر أصل للمؤنث))، وفي: مفاتيح الغيب للرازي: ٦/ ٤٨١: ((أَنَّ الذُّكُورَةَ أَصْلٌ وَالتَّأْنِيثَ فَرْعٌ فِي اللَّفْظِ وَفِي الْمَعْنَى أَمَّا فِي اللَّفْظِ فَلِأَنَّكَ تَقُولُ: قَائِمٌ. ثُمَّ تُرِيدُ التَّأْنِيثَ فَتَقُولُ: قَائِمَةٌ. فَاللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَى

ثَلَاثَةِ أَشْكَالٍ، هِيَ: تَاءُ التَّأنيثِ كَفَاطِمَة، وَأَلِفُ التَّأنيثِ المَقْصُورَةُ كَسَلْمَى، وَأَلِفُ التَّأْنِيثِ المَمْدُودَةُ كَحَمْرَاء.

وَقَد دَرَسَ اللُّغَويُّونَ التَّذْكِيرَ وَالتَّأنيثَ في كَلام العَرَب فَقَسَّمُوا المذَكَّرَ عَلَى أَنْوَاعٍ، وَالمؤنَّثَ عَلَى أَنْوَاعٍ أَيْضًا؛ ذَلِكَ أَنَّ التَّذْكِيرَ وَالتَّأْنِيثَ يَكُونَانِ فِي الكَائِنَاتِ الحَيَّة، لِأَنَّ الجِنْسَ يُمَيِّزُهَا، وَمِن ثَمَّ حُمِلَ الجَمَادُ عَلَيْهَا[10]؛ فَكَانَ عِنْدَ العَرَبِ مِنَ الجَمَادِ مَا هُوَ مُذَكَّرٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُؤَنَّثٌ، وَذَلِكَ عَن طَرِيقِ الوَضْعِ وَالاصْطِلَاحِ[11]؛ قَالَ ابنُ رُشد: ((وَالتَّذْكِيرُ وَالتَّأنيثُ فِي المَعَانِي إِنَّمَا يُوجَدُ فِي الحَيوَانِ، ثُمَّ قَد يُتَجَوَّزُ فِي ذَلِكَ فِي بَعْضِ الأَلْسِنَةِ، فَيُعَبَّرُ عَن بَعْضِ المَوجُودَاتِ بِالأَلفَاظِ التي أَشكَالُهَا أَشكَالٌ مُؤَنَّثَةٌ وعَن بَعْضِهَا بِالَّتي أَشكَالُهَا أَشكَالٌ مُذَكَّرَةٌ. وفي بَعْضِ الأَلسِنَةِ لَيسَ يُلْفَى فِيهِ لِلمُذَكَّرِ وَالمؤَنَّثِ شَكْلٌ خَاصٌّ، كَمِثلِ مَا حُكِيَ أَنَّه يُوجَدُ فِي لِسَانِ الفُرْسِ. وَهَذَا يُوجَدُ فِي الأَسمَاءِ وَالحُرُوفِ. وَقَد يُوجَدُ فِي بَعضِ الأَلْسِنَةِ أَسمَاءٌ هِيَ وَسطٌ بَيْنَ المذَكَّرِ والمؤَنَّثِ، عَلى مَا حُكِيَ أَنَّه يُوجَدُ كَذَلِكَ فِي اليُونَانِيَّة))[12].

المُذَكَّرُ وَأَنْوَاعُه:

المذَكَّرُ، بِعِبَارَةِ القُدَمَاءِ، هُوَ ((مَاخَلا مِن عَلَامَةِ التَّأْنِيثِ، لَفظًا وَتَقْدِيراً))[13]، أَوْ هُوَ عَلَى نَحوٍ أَكْثَرُ تَفْصِيلًا ((مَا خَلا مِن العَلَامَاتِ الثَّلَاثِ: التَّاء وَالأَلِفُ وَاليَاءُ، فِي نَحوِ غُرْفَة وَأَرْض وَحُبْلَى وَحَمْرَاء وَهَذِي))[14]. وَهُوَ بِعِبَارَةِ المُحْدَثِينَ ((مَا

المُذَكَّرِ هُوَ الْأَصْلُ، وَالدَّالُّ عَلَى الْمُؤَنَّثِ فَرْعٌ عَلَيْهِ، وَأَمَّا فِي الْمَعْنَى فَلِأَنَّ الْكَمَالَ لِلذُّكُورِ وَالنُّقْصَانَ لِلْإِنَاثِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ مَتَى اجْتَمَعَ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ كَانَ جَانِبُ التَّذْكِيرِ مُغَلَّبًا)). وينظر: شرح الكافية الشافية: ٤/ ١٧٣٣، وشرح التصريح: ٢/ ٤٨٧.

(١٠) ينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث (قسم الدراسة): ٢٨.

(١١) ينظر: المفصل في صنعة الإعراب: ٢٤٧، وشرح المفصل لابن يعيش: ٣/ ٣٥٧، ومعجم المصطلحات النحوية والصرفية (سمير نجيب اللبدي): ٨٥.

(١٢) تلخيص الخطابة: ١١٣. وينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، للأنباري (قسم الدراسة): ٣٩، والمذكر والمؤنث، لابن التستري الكاتب (قسم الدراسة): ١٦.

(١٣) البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٦٥. وينظر: المذكر والمؤنث لابن التستري: ٤٩.

(١٤) المفصل في صنعة الإعراب: ٢٤٧. وينظر: التعريفات: ٢٠٨، والتوقيف على مهمات

يَصحُّ أَنْ تُشيرَ إِلَيهِ بِقَولِكَ: (هَذَا) كَرَجُلٍ وَحِصَانٍ وَقَمَرٍ وَكِتَابٍ))[١٥].

وَالمذَكَّرُ، عِنْدَ القُدَمَاءِ، عَلَى نَوعَيْنِ، هُمَا:

المذَكَّرُ الحَقِيقِيُّ: وَهُوَ الَّذِي لَهُ أُنثَى مِن جِنْسِهِ، مِن النَّاسِ أَو الحَيوَانِ، مِثل: زَيد، وَالرَّجُل، وَالجَمَل[١٦].

والمذَكَّرُ غَيرُ الحَقِيقِيِّ أَو المجَازِيُّ: وَهُوَ مَا لم يَكُن لَهُ أُنْثَى مِن جِنْسِهِ، وإِنَّمَا حُمِلَ عَلَى المذَكَّرِ الحَقِيقِيِّ، مِثل: البَدْر، وَالجِدَار، وَالعَمَل[١٧].

وَيُورِدُ الدَّارِسُونَ المحْدَثُونَ للمُذَكَّرِ أَنْوَاعًا أُخْرى، مِنْهَا: المذَكَّرُ الحُكْمِي أَو المكْتسب، وَهُوَ مَا اكْتَسَبَ التَّذْكِيرَ من إِضَافَتِهِ إِلى اسمٍ مُذَكَّرٍ، كَمَا اكْتَسَبَت (إِنَارَة) التَّذْكِيرَ من إِضَافَتِهَا إِلى (العَقْل) في قَوْلِ الشَّاعِرِ[١٨]:

إِنَارَةُ الْعَقْلِ مَكْسُوفٌ بِطَوْعِ هَوًى
وَعَقْلُ عَاصِي الْهَوَى يَزْدَادُ تَنْوِيرَا

وَمِن أَنْوَاعِهِ أَيضًا: المذَكَّرُ تَأْوِيلا وَهُوَ المؤَنَّثُ الَّذِي اكْتَسَبَ التَّذْكِيرَ بِتَفْسِيرِهِ بِمُذَكَّرٍ، مِثل: ثَلاثَة أَنْفُس، بِتَأْوِيلِ النَّفْس بِالرَّجُل. وَهَذَانِ النَّوعَانِ مِمَّا دَرَسَه القُدَمَاءُ في بَابِ الإِضَافَةِ أَو تَحْتَ ظَاهِرَةِ اكْتِسَابِ المؤَنَّثِ التَّذْكِيرَ[١٩].

المُؤَنَّثُ وَأَنْوَاعُهُ:

المؤَنَّثُ: بِعِبَارَةِ القُدَمَاءِ ((مَا كَانَت فِيهِ عَلامَة التَّأْنِيثِ، لَفْظًا أَو تَقْدِيرًا))[٢٠]، وَهُوَ بِعِبَارَةِ المحْدَثِينَ ((مَا يَصحُّ أَنْ تُشِيرَ

التعاريف: ٣٠١، ودستور العلماء: ٣/ ١٦٧.

(١٥) جامع الدروس العربية: ١/ ٩٨. وينظر: شذا العرف في فن الصرف: ٧٣.

(١٦) ينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٦٥، والمعجم المفصل في المذكر والمؤنث: ٦١.

(١٧) ينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٦٥، والمعجم المفصل في المذكر والمؤنث: ٦١.

(١٨) البيت لبعض المولدين في المقاصد النحوية: ٣/ ٣٩٦، وبلا نسبة في: أوضح المسالك: ٣/ ٨٨، وخزانة الأدب: ٥/ ١٠٦، وينظر: المعجم المفصل في شواهد العربية: ٣/ ١٧٠.

(١٩) ينظر: أوضح المسالك: ٣/ ٨٨، ومغني اللبيب: ٦٦٥، وشرح الأشموني: ٢/ ١٣٩، وحاشية الصبان: ٢/ ٣٧٤.

(٢٠) البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٦٥، وينظر: التوقيف على مهمات التعاريف: ٣١٩، والمذكر والمؤنث بين اللفظ والمعنى: ١٠.

إِلَيه بِقَوْلِكَ: (هَذِه) كَامْرأَةٍ وَنَاقَةٍ وَشَمْسٍ وَدَارٍ))[٢١]. وَالمؤَنَّثُ، في العَرَبِيَّة، عَلَى أَنْوَاعٍ أَيْضًا، مِنْهَا:

المؤَنَّثُ الْحَقِيقِيُّ، وَهُوَ ((الَّذِي يَلِدُ وَيَتَنَاسَلُ؛ وَقَد يَكونُ تَنَاسُلُه من طَرِيق البيض وَالتَّفريخ كَالطُّيور))[٢٢]، أَو هُو مَا دَلَّ عَلَى أُنْثَى مِن النَّاسِ أَو الحَيوَانِ وَلَهُ مُذَكَّرٌ من جِنْسِه، نَحْو: الْمَرْأَة، والنَّاقة[٢٣].

وَالمؤَنَّثُ غَيْرُ الْحَقِيقِيِّ أَو المجَازِيُّ، هُوَ الَّذِي لا يَلِدُ وَلا يَتَنَاسَلُ، وَلَيسَ لَهُ مُؤَنَّثٌ من جِنْسِه[٢٤]. وَمَصْدَرُ تَأْنِيثِه الوَضْعُ وَالاصْطِلاحُ[٢٥]، فَهُوَ ((يُعَامَلُ مُعاملةَ الأُنْثَى مِن النَّاسِ أو الحَيوانِ، وَلَيسَ مِنْهَا))[٢٦]، نَحْو: الأَرْض وَالنَّار؛ وَمِن ثَمَّ فَهُو ((يَجْرِي في أَغْلَبِ اسْتِعْمَالاتِه اللَّفْظِيَّة عَلَى حُكْم المؤَنَّث الحَقِيقِيِّ فَيُؤَنَّث لَه الفِعْلُ أَحْيَانًا، وَكَذَلِكَ الصِّفَةُ وَالخَبَر))[٢٧]. وَيُقَسِّمُ القُدَمَاءُ المؤَنَّثَ غَيرَ الحَقِيقِيِّ عَلَى نَوْعَين، أَحْدهما: المقيس وَهُوَ مَا فِيه عَلامَةُ التَّأنيث لَفْظًا، مِثل: ذَاهِبَة، وَبُشْرَى، وَحَمْرَاء، وَالآخَر: هُوَ غَيرُ المقيس، وَهُوَ مَا خَلا مِن عَلامَة التَّأْنِيث لَفْظًا، وَإِنْ كَانَتْ فِيه تَقْدِيرًا، مِثل: السَّمَاء[٢٨].

وَمِن أَنْوَاعِ المؤَنَّثِ مَا يُسَمَّى بِالمؤَنَّث اللَّفْظِيِّ، وَهُوَ ((مَا فِيه عَلامَةُ التَّأْنِيث لَفْظًا، نَحْو ضَارِبَة، وَحُبْلَى، وَحَمْرَاء، أَو تَقْدِيرًا، وَهُوَ التَّاء، نَحْو: أَرْض، تَرَدّهَا في التَّصْغِير، نَحْو: أُرَيضة))[٢٩]، سَوَاءٌ

(٢١) جامع الدروس العربية: ١/ ٩٨، وينظر: شذا العرف في فن الصرف: ٧٣.

(٢٢) النحو الوافي: ٢/ ٧٨، و والمذكر والمؤنث بين اللفظ والمعنى: ١٠.

(٢٣) ينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٦٥، والتوقيف على مهمات التعاريف: ٣١٩، و دستور العلماء: ٣/ ٢٦٤، وجامع الدروس العربية: ١/ ٩٨، والمعجم المفصل في المذكر والمؤنث: ٦٢.

(٢٤) ينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٦٥.

(٢٥) ينظر: التعريفات: ٢٣٧، والتوقيف على مهمات التعاريف: ٣١٩، و دستور العلماء: ٣/ ٢٦٤، والمعجم المفصل في المذكر والمؤنث: ٦٢.

(٢٦) جامع الدروس العربية: ١/ ٩٨.

(٢٧) النحو الوافي: ٢/ ٧٨.

(٢٨) ينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٦٥.

(٢٩) التعريفات: ٢٣٧، وينظر: دستور العلماء: ٣/ ٢٦٤.

أَدَلَّ عَلَى مُؤَنَّثٍ كَفَاطِمَةَ، أَم عَلَى مُذَكَّرٍ كَحَمْزَةَ[٣٠].

وَمِن أَنْوَاعِهِ مَا يُسَمَّى بِالمؤَنَّث المعْنَوِيّ أَو التَّقْدِيْرِيّ، وَهُوَ ((مَا كَانَ دَالًا عَلَى مُؤَنَّثٍ مُطْلَقًا، مَعَ خُلُوِّ لَفْظِه مِن عَلَامَةِ تَأْنِيثٍ))[٣١]، نَحْو: زَيْنَب، وَعَين، وَبِئْر.

وَمِنْهَا مَا يُسَمَّى بِالمؤَنَّث تَأْوِيْلًا أَو المؤَنَّث التَّأْوِيْلِيِّ، وَهُوَ المذَكَّرُ الَّذِي يُؤَوّلُ بِمُؤَنَّثٍ لَهُ المعنَى نَفْسُه، كَالكِتَاب؛ الَّذِي يُؤَوّلُ بِالصَّحِيفَة، وَاللِّسَان؛ الَّذِي يُؤَوّلُ بِالرِّسَالَة[٣٢].

وَمِن أَنْوَاعِهِ مَا يُسَمَّى بِالمؤَنَّث حُكْمًا أَو المؤَنَّث الحُكْمِي، وَهُوَ المذَكَّرُ الَّذِي اكْتَسَبَ التَّأْنِيثَ مِن إِضَافَتِه إِلَى مُؤَنَّثٍ؛ نَحْو كَلِمَة: (كُلّ) في قَوْلِه تَعَالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [سورة: ق: ٢١]، فَكَلِمَةُ: (كُلّ) مُذَكّرةٌ، وَلَكِنَّهَا اكْتَسَبَت التَّأْنِيثَ مِن المضَاف إِلَيه: (نفس) فَأُنِّثَ الفِعْلُ لِتَأْنِيثِهَا[٣٣].

فِي ضَوَابِطِ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيث:

قَد يَتَبَادَر إِلى الذِّهْنِ أَنَّ العَلاقَةَ بَيْنَ: المبتَدَأ وَخَبَرِه، أَو المنْعُوتِ وَنَعْتِه، أَو الفِعْلِ وَفَاعِلِه، مِن حيثُ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ، هِيَ علاقَةُ مُطَابَقَة؛ فَإِذَا كَانَ المبْتَدَأ مُذَكَّرًا كَانَ خَبرُه مُذَكَّرًا أَيضًا، وَإِذَا كَانَ المنعُوتُ مُؤَنَّثًا مَثَلا كَانَ نَعْتُه مُؤَنَّثًا مِثْلَه أَيْضًا... وَهكذَا، غَيرَ أَنَّ للغةِ في بابِ المذَكّرِ والمؤَنّثِ مُرونةً وَسَعَة، وَلَهَا قَوَاعِد تَخْتَلِفُ عن هَذَا التَّجرِيدِ المنطقِي. وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ مَا دَعَا ابنُ التّستريِّ الكَاتب (ت ٣٦١هـ) إِلى وَصْفِ بَابِ المذَكَّرِ وَالمؤَنَّثِ بِأَنَّه لا يَجْرِي عَلَى قِيَاسٍ مُطَّرِدٍ دَائِمًا؛ قَالَ: ((لَيْسَ يَجْرِي أَمرُ المذَكَّرِ والمؤَنَّثِ عَلَى قِيَاسٍ مُطَّرِد، وَلا لَهُمَا بَابٌ يَحصُرُهُمَا، كَمَا يَدَّعِي بَعْضُ النَّاسِ))[٣٤].

(٣٠) ينظر: جامع الدروس العربية ١/ ٩٨، والنحو الوافي ٢/ ٧٨.

(٣١) النحو الوافي: ٢/ ٧٨، وينظر: المعجم المفصل في المذكر والمؤنث: ٦٢، والمذكر والمؤنث بين اللفظ والمعنى: ٢١.

(٣٢) ينظر: النحو الوافي: ٢/ ٧٨، والمعجم المفصل في المذكر والمؤنث: ٦٣.

(٣٣) ينظر: النحو الوافي: ٢/ ٧٨، والمعجم المفصل في المذكر والمؤنث: ٦٣.

(٣٤) المذكر والمؤنث لابن التستري: ٤٧.

وَيُمكننَا القَولُ إنَّ هَذِهِ السَّعة الَّتي يَتَّصِفُ بِهَا بَابُ المذَكّرِ وَالمؤَنَّث في العَرَبيَّةِ تَرجعُ إلَى أَمْرَين؛ الأَوَّل: أَنَّ في العَرَبيَّةِ من الأَسْمَاءِ مَا يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ كالدَّلوِ والسّكين وَالسّبيلِ وَاللّسَانِ والذِّراعِ وَالسّلاحِ، كَمَا أَنَّ فِيهَا مَا يَكُونُ للمُذَكَّرِ والمؤَنَّث، عَلَى الرَّغْمِ من أَنَّ فِيهِ عَلامَةَ التَّأْنيثِ كَالحيّةِ وَالشَّاةِ والرّبعةِ وبعضِ الصِّفاتِ الَّتي يَسْتَوي فِيهَا المذَكَّرُ وَالمؤَنَّثُ، وَغيرها[٣٥]. وَالآخَر: يَتَمَثَّلُ في ضَوَابِطِ التَّذكيرِ وَالتَّأْنيثِ في العَرَبيَّةِ نَفْسِهَا؛ إذْ يُوجَدُ فِيهَا نَوعَانِ من الضَّوَابِطِ: النَّوع الأَوَّل يُقَنِّنُ حَالاتِ الوُجوبِ؛ أَي وُجوبِ التَّذكيرِ أَو وُجوبِ التَّأنيثِ. وَالنَّوع الثَّاني من الضَّوَابِطِ: يُقَعِّدُ لِحَالاتِ الجَوَازِ؛ أَي جَوازِ التَّذْكيرِ وَالتَأنيثِ، مَعَ ترَجْيحِ أَحَدِهما: أَي تَرْجيحِ التَّذكيرِ أَو ترجيحِ التَّأْنيثِ، في بَعْضِ المَوَاضِعِ.

لَقَد بَيَّنَ القُدَمَاءُ أَنَّ بَعْضَ الأَسْمَاءِ، في العَرَبيَّةِ، يَجوزُ تَذْكيرُها وَتَأْنيثُهَا[٣٦]، حَتَّى إنَّهم قَالُوا: ((كُلّ اسْمٍ لَيْسَ فيه عَلم التأنيث فتذكيره جَائز، كالسَّماء، والأَرض، والشَّمْس، والنَّار، والبِئْر، والحَرْب، ونحوها. وقال الفراء: العَربُ تجْتَرئ عَلَى تَذْكير كلِّ مؤنَّث لَيْسَ فيها عَلَمُ التأنيث))[٣٧]. وَقَد تَكَفَّلت كُتبُ المذكَّر والمؤنَّث والمعَاجم العَربيَّة ببيَانِ هذه الأَسمَاءِ التي يَجوزُ فِيهَا التَّذكيرُ والتَّأنيثُ، مَعَ التَّعليلِ وَالتَّوجيهِ وَالاسْتِشْهَادِ من فَصيحِ كَلامِ العَرَب. كَمَا تَنَاوَلَ اللُّغَويُّونَ القُدَماءُ أيضًا الصِّفَاتِ الَّتي يَستوي فِيهَا المذَكَّرُ وَالمؤَنَّثُ؛ وَبَيَّنُوا أَنَّ هذِهِ الصِّفَاتِ تُسْتَعْمَلُ، في العَرَبيَّةِ، عَلَى صُورةٍ وَاحِدةٍ من غَيرِ أَنْ تَدخلَهَا عَلامَةُ التَّأنيثِ. وقد أَطلَقَ بَعضُ الدَّارسينَ المحدَثِينَ عَلَى هَذَا النَّوعِ من الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مُصطَلَحَ: اللَّفْظِ المحَايد، وَهُوَ مُصطَلَحٌ مَنْقُولٌ من اللُّغَاتِ الأُخْرَى[٣٨]. وَقَد

(٣٥) ينظر: جامع الدروس العربية: ١/ ٩٩.

(٣٦) ينظر: الكتاب: ٢/ ٩٢، والمذكر والمؤنث، لابن التستري: ٥١، والبلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٨١ -٨٤.

(٣٧) غريب الحديث للخطابي: ٣/ ٦٢٢.

(٣٨) ينظر: المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب: ٢٥١ -٢٥٢، والمذكر

جَمَعَ الزَّمخشَريُّ (ت ٥٣٨هـ) الصِّفَاتِ الَّتي يَستَوي فِيهَا المذكَّرُ والمؤَنَّثُ، مُشْتَرِطًا فِيهَا ظُهورَ الاسْم؛ لئلا يَقَعَ لَبسٌ في الكَلام بَيْنَ المذَكَّرِ وَالمؤَنَّث؛ قَالَ: ((ويَستَوي المذكَّرُ والمؤنّثُ في فَعول ومِفعَال ومِفعيل وفَعِيل بمعنى مَفعول ما جَرَى عَلَى الاسم، تقول: هَذِهِ المرأةُ قَتِيل بني فلان وَمَرَرْتُ بِقَتِيلِهم. وَقَد يُشَبَّه به ما هُو بمَعنَى فَاعِل، قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[سورة: الأعراف: ٥٦] وَقَالُوا: ملحفة جديد))[٣٩]. وَقَد انْتَهَى الدَّارِسُونَ إِلَى تَحْدِيدِ أَشْهَرِ هَذِهِ الأَوْزَانِ الَّتي يَستَوي فِيهَا المذكَّرُ وَالمؤنَّثُ عَلَى النَّحْو الآتي:

١. **فَعُول** بمعنى: فاعِل، نحو: صَبُور، بمعنى: صَابِر، مثل: رجل أو امرأة صبور.

٢. **مِفْعَال**، نحو: مِفْرَاح؛ لِكَثِيرةِ الفَرَحِ وَكَثِيرِه.

٣. **مِفْعِيل**، نحو: مِنْطِيق للرَّجُلِ البَلِيغِ، وَالمرأَةِ البَلِيغَةِ.

٤. **مِفْعَل**، نحو: مِغْشَم، بمَعنَى: جَرِيء وَشُجَاع، لِلمَذَكَّرِ وَالمؤَنَّث؛ يُقَالُ: رَجُل أَو امْرأَة مِغْشَم[٤٠].

٥. **فَعِيل**، بمَعنَى: مَفعول، نَحو: قَتِيل، يُقال: رَجُل قَتِيل وَامرأَة قَتِيل.

٦. **فِعْل**، بمَعنَى: مَفعول، نَحو: ذِبْح، يُقَالُ: جَمَل أَو نَاقَة ذِبْح.

٧. **فَعَل**، بمَعنَى: مَفعول، نَحو: جَزِر، يُقَالُ: جَمَل أَو نَاقَة جَزَر.

٨. **المصدَر المُراد به الوَصفُ**، نَحو: عَدْل، يُقَالُ: رَجُل عَدْل وامرأة عَدْل[٤١].

تَذكيرُ الفِعلِ للفاعِلِ وَتَأنيثُه: دَرَسَ القُدماءُ أَحكامَ الفِعْلِ عِندَما يُسنَدُ إلى الفَاعِلِ أو عِندَمَا يُخْبَرُ به عن المبتدأ أَو ما في حُكْمِه، وَقَد وَجَدوا أَنَّ هذه الأَحكامَ تَتَّخذُ ثَلاثَ حالاتٍ، هِي: وُجوبُ

والمؤنث بين اللفظ والمعنى: ٢١.

(٣٩) المفصل في صنعة الإعراب: ٢٤٩ – ٢٥٠.

(٤٠) ينظر: النحو الوافي: ٤/ ٥٩٢، والمعجم المفصل في المذكر والمؤنث: ٧٨ – ٨٠.

(٤١) ينظر: جامع الدروس العربية: ١/ ١٠٠، والمعجم المفصل في المذكر والمؤنث: ٧٨– ٨٠، والمذكر والمؤنث بين اللفظ والمعنى: ٢٣.

التَّذكيرِ، ووُجوبُ التَّأنيثِ، وجَوازُ الأَمرين. ولا بدَّ لنا، قبلَ عرض هذه الحالات، من أَن نستحضر في أذهاننا أنَّ القدماءَ كانوا يرون أنَّ تاءَ التأنيثِ السَّاكنةِ التي تَدخلُ على الفعلِ هي لتأنيثِ الفاعلِ وليستْ لتأنيثِ الفعلِ حقيقةً، لأَنَّ الفعلَ لا يُؤنَّثُ عندهم؛ قال العكبريُّ (ت ٦١٦هـ): ((إِنَّمَا دَخَلَت تَاء التَّأْنِيث السَّاكِنة عَلَى الْفِعْل لِأَن الْغَرَض مِنْهَا الدّلَالَة على تَأْنِيث الْفَاعِل فَقَط لَا الدّلَالَة على تَأْنِيث الْفِعْل إِذِ الْفِعْل لَا يؤنث وَلَا تَجِد تَاء تَأْنِيث متحركة مُتَّصِلَة بآخر الْفِعْل، وَإِنَّمَا ذَلِك فِي الْأَسْمَاء مثل (قَائِمَة) والحروف مثل (ربت) و (ثمت)))[٤٢].

وقد أكَّد ابنُ مَالك هَذَا الأَمرَ، وَعلَّل دخولَ تَاءِ التأنيثِ عَلَى الفعلِ معَ دلالتها عَلَى تأنيثِ الفَاعلِ، بأَنَّه من بَابِ الاحتِيَاطِ؛ قَالَ عن تَاءِ التَّأنيثِ السَّاكنةِ: ((وكانَ حقُّها ألا تلحقَ الفعلَ، لأَنَّ مَعناها في الفَاعلِ؛ إلَّا أَنَّ الفَاعلَ كَجُزءٍ مِن الفعلِ، فَجَازَ أَن يَدلَّ عَلَى مَعنى في مَا اتَّصَلَ بالفعلِ، كَما جازَ أن يَتَّصلَ بالفَاعلِ علامة رفعِ الفعلِ في: «تَفعَلانِ» و«تَفعلُونَ» و«تَفعَلِينَ». ولأَنَّ تَأنيثَ لَفظِ الفَاعلِ غَيرُ مَوثوقٍ به لجَوازِ أَن يَكونَ لَفظًا مُؤنَّثًا سُمِّيَ به مُذكّر؛ فاحتَاطُوا في الدَّلالةِ عَلَى تأنيثِ الفاعلِ بوَصْلِ الفعْلِ بالتَّاءِ المذكورةِ لِيُعَلَم من أَولِ وَهلةٍ أَنَّ الفَاعلَ مُؤنث))[٤٣].

وَعَلى الرَّغْم من أَنَّ ((الأَصل أَنْ يُؤنَّث الفعلُ مع الفاعلِ المؤنثِ ويُذكَّرَ مع المذكَّر))[٤٤]، فإنَّ للفعلِ مَعَ الفَاعلِ من حَيثُ التَّذكيرُ وَالتَّأنيثُ، في العَربيَّة، ثَلاثَ حَالاتٍ، لَخَّصَهَا ابنُ جني (ت ٣٩٢هـ) بقَوْلِه: ((إن كَانَ الْفَاعِل مؤنثا جئت فِي الْفِعْل بعلامة التَّأْنِيث تَقول قَامَت هِنْد وَقَعَدت جُمْلٌ فالتاء عَلامَة التَّأْنِيث فَإِن كَانَ التَّأْنِيث غير حَقِيقِيّ كنت فِي إِلْحَاق التَّاء وَتركهَا مُخَيّرا تَقول حسنتْ دَارك واضطرمت

(٤٢) اللباب في علل البناء والإعراب: ١/ ٤٩-٥٠.

(٤٣) شرح الكافية الشافية: ٢/ ٥٩٥، وينظر: شرح الأشموني: ١/ ٣٩٦.

(٤٤) الموجز في قواعد اللغة العربية: ٢١٥.

نارك وَإِن شِئْت حَسُنَ واضطرمَ إِلَّا أَن إلحاقها أحسن من حذفهَا فَإِن فصلت بَين الْفِعْل وَالْفَاعِل ازْدَادَ ترك الْعَلامَة حسنا تَقول حَسُنَ اليومَ دارُك واضْطَرَمَ اللَّيْلَة نَارُكَ وَقد يَجُوزُ مَعَ الْفَصْل تذكير الْفِعْل مَعَ التَّأْنِيث الْحَقِيقِيّ،...، وَلَك فِي كُلِّ جَمَاعَة تَذكِيرُ فِعلِهَا وَتَأنِيثُه تَقولُ قَامَ الرِّجَالُ وَقَامَتِ الرِّجَالُ وَقَامَ النِّسَاءُ وَقامَتِ النِّسَاءُ فَمَن ذَكَّر أَرَادَ الجَمْعَ وَمَن أَنَّثَ أَرَادَ الجَمَاعَةَ))[٤٥]. وفي مَا يَأتي عَرْضٌ لهذِه الحَالاتِ الثَّلاثِ[٤٦]:

وُجُوب التَّذكير: يَجبُ تَذْكِيرُ الفِعلِ للفَاعِلِ في مَوضِعَين، هُمَا:

١. أن يكون الفاعلُ مذكراً، مفرداً أو مثنّى أو جمعَ مذكرٍ سالماً. سواءٌ أكان تذكيرُه معنًى ولفظاً، نحو: جاء المجتهد، أو المجتهدان، أو المجتهدون، أو معنى فقط، نحو: جاء حمزةُ.

٢. أن يُفْصَلَ الفعلُ عَن فاعِلِه المؤَنَّث الظَّاهِر بـ(إلا)، نَحو: مَا قَام إِلَّا فَاطِمَةُ. وقد جَعَلَ بعضُ النُّحاةِ هذا الموضعَ ممَّا يَجوزُ فيه الوَجْهَان، مَعَ تَرجيحِ التَّذكير؛ قَالَ ابنُ هِشام: ((فالتَّذكِيرُ هُنَا أَرجَحُ بِاعْتِبَار الْمَعْنى لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: مَا قَامَ أحدٌ إِلَّا هِنْدُ، فالفَاعِلُ فِي الْحَقِيقَة مُذَكّر، وَيَجُوز التَّأْنِيثُ بِاعْتِبَار ظَاهر اللَّفْظ))[٤٧].

وُجوبُ التَّأنيث: ويَجبُ تأنيثُ الفعلِ للفَاعِلِ في ثَلاثةِ مَواضعَ، هي:

١. أن يَكونَ الفاعلُ مؤنثاً حقيقياً ظاهراً غير مَفصول عن فِعلِه بفاصل، مُفرداً أو مثنى أو جَمعَ مؤنثٍ سالماً، نحو: جاءت فاطمةُ، أو جاءت الفاطمتان، أو جاءت

(٤٥) اللمع في العربية لابن جني: ٣٢.

(٤٦) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك: ٢/ ٥٩٢-٥٩٣، وأوضح المسالك: ٢/ ٩٨-١٠٣، وشرح ابن عقيل: ٢/ ٨٩-٩١، وشرح الأشموني: ١/ ٣٩٧، وجامع الدروس العربية: ٢/ ٢٤١-٢٤٢، والنحو الوافي: ٢/ ٨٠، والموجز في قواعد اللغة العربية: ٢١٥، ونحو العربية: ٣/ ٥١-٥٦.

(٤٧) شرح شذور الذهب: ٢٢٦. وينظر: توضيح المقاصد والمسالك: ٢/ ٥٨٩، وشرح الكافية الشافية: ٢/ ٥٩٧، وشرح الأشموني: ١/ ٣٩٧، وشرح التصريح: ١/ ٤١١.

الفاطماتُ[٤٨].

٢. أن يَكونَ الفاعلُ ضميراً مستتراً يعودُ إلى مؤنثٍ حَقيقيٍّ أو مجازيٍّ، نحو: فاطمةُ ذَهَبت، والشمسُ طَلعت.

٣. أن يَكونَ الفاعلُ ضميراً يعودُ إلى جَمع مؤنثٍ سالمٍ، أو جَمعٍ تكسير لمؤنثٍ أو لمذكرٍ غير عاقلٍ، نحو: الفَاطِماتُ جاءتْ أو جئنَ، أو تجيءُ، أو يجئنَ، والفواطِمُ أقبلتْ أو تقبل أو أقبلنَ، والجِمالُ سارت أو تسيرُ أو يسرْنَ.

جَوازُ الأَمْرَين: ويَجُوزُ الأَمران: تذكيرُ الفعلِ وتأنيثُه، في المواضع الآتية:

١. أن يَكونَ الفاعلُ اسماً ظاهراً مجازي التأنيث، نحو: طلعتِ الشَّمسُ، وطلعَ الشَّمسُ. ومن التَّذكيرِ قولُه تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال: ٣٥]. وجَعلَ النُّحاةُ التأنيثَ هنا أَفصَحَ؛ قالَ الزمخشريُّ: ((وَجَازَ: طلعَ الشمسُ، وإنْ كانَ المختارُ: طلعت))[٤٩]. وقد قيَّد ابنُ هِشَام حَالةَ الجَوازِ هذه بالفعلِ -أو ما أَشبَهه -المسنَدِ إلى المؤنَّثِ المجازيِّ، قالَ: ((قَوْلهم الْمُؤَنَّث الْمَجَازِي يجوز مَعَه التَّذْكِير والتأنيث وَهَذَا يتداوله الْفُقَهَاء فِي محاوراتهم، وَالصَّوَاب تَقْيِيدُه بالمسنَدِ إِلَى الْمُؤَنَّث الْمَجَازِي وبكَون الْمسنَد فِعْلا أَو شبهه وَبِكَون الْمُؤَنَّث ظَاهرًا وَذَلِكَ نَحْو طلع الشَّمْس ويطلع

(٤٨) هذا الرأي المشهور، في الفاعل الظاهر حقيقي التأنيث إذا كان جمع مؤنث سالما؛ ينظر: شرح شذور الذهب للجوجري: ١/ ٣٤٦، وجاء في: النحو الوافي: ٢/ ٨١: ((يجب تأنيث عامله، في الرأي الأقوى)). في حين جعل بعض النحاة تذكير الفعل مع الفاعل الظاهر حقيقي التأنيث، إذا كان جمع مؤنث سالما، أحسنَ من تأنيثه، قال الرضي في شرحه على الكافية: ١٣١٩: ((حذف العلامة من الرافع بلا فصل مع الجمع نحو: قال الرجال، أو النساء، أو الزينبات، أحسن منه مع المفرد والمثنى)). وينظر مثل هذا الرأي في منحة الجليل بهامش: شرح ابن عقيل: ٢/ ٩٤.

(٤٩) المفصل في صنعة الإعراب: ٢٤٧، وينظر: شرح ابن عقيل: ٢/ ٨٩، وشرح التصريح: ١/ ٤٠٧، وحاشية الصبان: ٢/ ٧٣.

الشَّمْسُ وأَطَالِعُ الشَّمْسُ، وَلَا يجوز: هَذَا الشَّمْس وَلَا هُوَ الشَّمْس وَلَا الشَّمْس هَذَا أَو هُوَ))[٥٠].

٢. أن يَكونَ الفاعلُ مؤنَّثاً حقيقيًّا مفصولاً عن فعله بفاصلٍ غير (إلا)، نحو: حَضَرتْ، أَو حَضَرَ المجلسَ امرأةٌ، والتأنيثُ هنا أكثرُ[٥١]. ومن التذكيرِ ما وَرَدَ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾[سورة الممتحنة: ١٠].

٣. أن يَكونَ الفَاعلُ ضَميرا مُنفصلًا لمؤنَّثٍ، نَحو: إنما قامَ هِي، أو إنّما قَامت هي، ونحو: مَا قَامَ إِلَّا هي، أَو مَا قَامَت إِلَّا هي. والتَّذكيرُ هنا أفصحُ[٥٢].

٤. أن يَكونَ الفعلُ من أفعالِ المدحِ أو الذمِّ: (نِعم أو بِئسَ أو ساءَ) وفاعلُه مؤنثٌ ظاهرٌ، نحو: نِعمَ المرأةُ دَعدٌ، أو نِعمَتْ المرأةُ دَعدٌ، وقد حَمَلَ النحاةُ ((التَّأنيث عَلَى مُقْتَضى الظَّاهِر والتَّذكير عَلى مَعنى الْجِنْس لِأَن الْمُرَاد بِالْمَرْأَةِ الْجِنْس لَا وَاحِدَة مُعينَة))[٥٣]. واستَحْسَنَ النُّحاةُ التَّذكيرَ هنا[٥٤].

٥. أن يَكونَ الفاعلُ مُذَكَّرًا مَجموعًا بالألفِ والتَّاءِ، نحو: جاءَ الحمزاتُ، أو جاءتِ الحمزاتُ؛ فالتذكيرُ مراعاةً للمعنى والتأنيثُ مراعاةً للفظ. والتذكيرُ هنا أحسنُ[٥٥].

٦. أن يَكونَ الفاعلُ جمعَ تكسيرٍ لمؤنّثٍ أو لمذكّرٍ، نحو: جَاءَ الفواطمُ، أو جَاءتِ الفواطمُ، ونَحو: جَاءَ الرّجَالُ، أو جَاءتِ الرّجَالُ. والأَفضلُ التذكيرُ مع

(٥٠) مغني اللبيب: ٨٦٠.

(٥١) جاء في: شرح الأشموني:١/ ٣٩٨: ((والأجود الإثبات))، أي: إثبات تاء التأنيث.

(٥٢) ينظر: أوضح المسالك: ٢/ ٩٥، وشرح ابن عقيل: ٢/ ٨٨، وشرح الأشموني: ١/ ٣٩٧، وشرح التصريح: ١/ ٤٠٧.

(٥٣) شرح شذور الذهب لابن هشام: ٢٢٥.

(٥٤) ينظر: شرح التصريح: ١/ ٤٠٨.

(٥٥) ينظر: شرح ابن عقيل: ٢/ ٩٥، وشرح الأشموني: ١/ ٤٠١، وهمع الهوامع: ٣/ ٣٣٤، وجامع الدروس العربية: ٢/ ٢٤٢، والنحو الوافي: ٢/ ٨٢، والموجز في قواعد اللغة العربية: ٢١٥.

المذكّرِ، والتأنيثُ مع المؤنّث[٥٦]. ومنه قولُه تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [سورة آل عمران: ٤٥]، وقولُه تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾[سورة الحجر: ٣٠]، إذ أُثْبِتَت التاءُ معَ الفعلِ (قالت) في الآيةِ الأُولى، في حين حُذِفَت من الفِعْلِ (سجد) في الآيةِ الثّانية، على الرَّغم من أَنَّ الفاعلَ في الآيتين كلتيهما واحدٌ، وهو (الملائكة).

٧. أن يَكونَ الفاعلُ ضميرًا يعودُ إلى جمع تكسيرٍ لمذكرٍ عاقلٍ، نحو: الرجالُ جاءوا، أو الرجالُ جاءت. والتذكيرُ بضميرِ الجمعِ العاقلِ أفصحُ[٥٧].

٨. أن يَكونَ الفاعلُ مُلْحَقاً بجمع المذكرِ السَّالمِ، نحو (جاء أو جاءت البنونَ). والراجحُ هنا التذكيرُ[٥٨].

٩. أن يَكونَ الفاعلُ مُلْحَقاً بجمع المؤنثِ السَّالمِ، نحو: جاء البناتُ، أو جاءت البناتُ. والتأنيثُ هنا أَحسنُ[٥٩].

١٠. أن يَكونَ الفاعلُ اسم جَمعٍ، نحو: جاء، أو جاءت النساء، أو القومُ، أو الرهط، أو الإبل[٦٠]. ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[سورة الشعراء: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾[سورة الأعراف: ١٤٨]، إذ لحقت التاء الفعل في الآية الأولى؛ في حين جاء في الآية الثانية مجردا من التاء، على الرغم من أن الفاعل فيهما واحد، وهو: قوم.

(٥٦) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك: ٢/ ٥٨٨، وأوضح المسالك: ٢/ ١٠١، وشرح شذور الذهب لابن هشام: ٢١٤، وشرح شذور الذهب للجوجري: ١/ ٣٤٧.

(٥٧) ينظر: جامع الدروس العربية: ٢/ ٢٤٢.

(٥٨) ينظر: شرح شذور الذهب للجوجري: ١/ ٣٤٧، وشرح التصريح: ١/ ٤١١.

(٥٩) ينظر: شرح شذور الذهب للجوجري: ١/ ٣٤٧، وشرح التصريح: ١/ ٤١١.

(٦٠) ينظر: أوضح المسالك : ٢/ ١٠٠، وتوضيح المقاصد والمسالك: ٢/ ٥٩٣، وشرح شذور الذهب للجوجري: ١/ ٣٤٧، وجامع الدروس العربية: ٢/ ٢٤٢.

١١.أن يَكونَ الفاعلُ اسم جنسٍ جَمْعياً، نحو: قال العربُ، أو قالت العربُ، ونحو: أورق الشجر، أو أروقت الشجر.

وقد بَحَثَ النُّحاةُ عن تفسيرٍ لِظَاهِرةِ جَوازِ التّذكيرِ والتّأنيثِ عندما يكونُ الفاعلُ -أَو ما في حُكمه -دالًّا على جَمعٍ (كما في النقاط: ٦ -١١)، فاستَنَدُوا، في تَفْسيرِهم، إلى التَأويلِ اللغويِّ، بأَنْ حَمَلُوا التَّذكيرَ على مَعنى الجَمْعِ وحَمَلُوا التَّأنيثَ على مَعنى الجَمَاعَةِ؛ قَالَ ابنُ السَّراجِ (ت٣١٦ هـ) عن جَوازِ التَّذكيرِ والتَّأنيثِ معَ اسمِ الجنسِ الجَمعيِّ: ((فحَقُّ هذا إذَا أَخرجُوا منه الهَاءَ أَن يَجُوزَ فيهِ التّأنيثُ والتَّذكيرُ، فتقول: هُوَ التَّمرُ وهو البُسرُ وهو العنب وَكَذَلِكَ مَا كَانَ فِي مِنهَاجِه، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ: هِيَ التَّمرُ وَهِيَ الشَّعيرُ،... ، فَالتَّذكيرُ عَلَى مَعنى الجَمعِ والتّأنيثُ عَلَى مَعنى الجَمَاعَة))[٦١].

وقد عَلَّلَ الرضيُّ الاستراباذي (ت ٦٨٦هـ) تذكيرَ الفعلِ في نَحْو: قَامَ النِّسَاءُ أَو قَامَ الفَواطِمُ أَو قَامَ الزَّيْنَبَاتُ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِن التَّأنيثِ الحَقيقيِّ في المفردِ، بأَنَّ المجازيَّ الطَّارئ أَزالَ حُكْمَ الحَقيقيَّ، قَالَ: ((وإنّما لم يَعتبرُوا التَّأنيثَ الحَقيقيَّ الذي كانَ في المفردِ نحو: قالَ النِّسوةُ، لأَنَّ المجازيَّ الطارئ أَزالَ حُكْمَ الحَقيقيَّ، كَمَا أَزالَ التّذكيرَ الحَقيقيَّ في (رِجَال)، وإنّما لم تُبطِلِ التَّثنيةُ التَّذكيرَ الحَقيقيَّ في (رجلان)، وَلَا التّأنيثَ الحقيقيَّ في (الهندان)، ولم يُبطِلِ الجَمْعُ بالوَاوِ وَالنُّونِ التّذكيرَ الحَقيقيَّ في (الزّيدون)، لِبقاءِ لفظِ المفردِ فيه فاحْتَرَمُوه، وَكَانَ قِيَاسُ هَذا أَنْ يَبْقَى التّأنيثُ الحَقيقيُّ في المجموعِ بالأَلفِ والتّاءِ أَيضًا نحو (الهندات) لِبقاءِ لفظِ الواحدِ فيه أَيضًا))[٦٢].

والَّذي يُهمنا، هُنَا، هُو أَنْ نخلُصَ،

(٦١) الأصول في النحو: ٢/ ٤٠٨. وينظر: أوضح المسالك: ٢/ ١٠٠، وشرح شذور الذهب لابن هشام: ٢٢٥، وشرح شذور الذهب للجوجري: ١/ ٣٤٧، وشرح الأشموني: ١/ ٤٠١، وهمع الهوامع: ٣/ ٣٣٤، وحاشية الصبان: ٢/ ٧٧، والنحو الوافي: ٢/ ٨٢، وجامع الدروس العربية: ٢/ ٢٤٢.

(٦٢) شرح الرضي: ١٣١٩.

مِمَّا تَقدَّمَ، إلى أَنَّ النَّحويينَ فَسَّروا ظاهرةَ جَوازِ تَذكيرِ الفِعلِ وتَأنيثِه، بِثَلاثةِ أُمورٍ، هي:

الأَول: كَونُ الفاعلِ مجازيَّ التّأنيثِ وليسَ حَقيقيَّه، ومِن ثَمَّ يَجوز تَجريدُ الفِعلِ من تاءِ التّأنيثِ.

الثّاني: وُجودِ فَاصلٍ بينَ الفِعلِ وفَاعلِه المؤنّث، يُجيزُ تَجريدَ الفِعلِ من تَاءِ التّأنيثِ.

الثّالث: أَن يَكونَ الفَاعِلُ دَالًّا عَلَى الجَمعِ، ومِن ثَمَّ يَجوزُ تَذكيرُ فِعلِه وَتأنيثُه، حَملًا على اللفْظِ أَو على المعنى، لأَنَّ الجَمعَ يُلاحَظ فيه مَعنى الجَمعِ فيُذَكَّر عامِلُه، أَو يُلاحَظُ فيه مَعنى الجَماعةِ فيُؤَنَّث عامِلُه.

هَذِهِ هِيَ الأُسُسُ الّتي انطَلَقَ مِنها النَّحويونَ القُدماءُ في النَّظرِ إلى ظاهرةِ جَوازِ التّذكيرِ والتّأنيثِ واستَنَدُوا إليهَا في تَفسيرِ مَا يَجِدُونَه مِن صُورِهَا في الفَصيحِ مِن كَلامِ العَربِ.

وَقَد اطمَأَنَّ النَّحويُّونَ العَربُ إلى هَذِهِ الأُسُسِ الفِكريّةِ في تَناوُلِهم هذِهِ الظّاهرةَ ومُعَالجَتِهَا في النُّصوصِ الفَصيحَةِ[٦٣]، للوُصولِ إلى اتّساقٍ واتّفاقٍ بيْنَ التّفكيرِ اللّغويّ والنّصّ الفَصيحِ الّذي لا يُمكنُ تَلحينه، للخروجِ بقواعدَ لغويّةٍ: نَحويّةٍ أَو صَرفيّةٍ، تفسِّرُ المستعملَ من الكَلامِ في الوَاقعِ اللّغويِّ، ومِن ثَمَّ يُمكن تَعميمها والقِياس عليها في كَلامِنا اليَوم.

وَقَد تَبَنَّى أَكثرُ النَّحويّينَ القُدمَاء هَذِهِ الرّؤيةَ عندَ دِرَاسَتِهم هَذا الموضُوعَ، وَهِيَ رُؤيةٌ لُغويّةٌ بَحتةٌ تَنطلقُ من اللّغةِ العَربيّةِ نَفسِها. في حين حَاولَ بَعضُ النّحويّينَ البَحْثَ في هذا الموضُوعِ مِن زَاويةٍ أُخرى، لا تَكْتَفِي بِالتّفسيرِ اللّغويّ أَو المنطقيّ للظّاهرةِ ولا تَقنعُ بِهما، وإنَّما تَبحثُ في الظّاهرةِ مِن حيثُ آثارُها الدّلاليّةُ وأَبعادُها المعنويّةُ في

(٦٣) تنظر صورة من تطبيق بعض هذه الأسس اللغوية على القرآن الكريم في: إعراب القرآن للباقولي المنسوب خطأ للزجاج ٢/ ٦١٢: ((الباب التاسع والعشرون: هذا باب ما جاء في التنزيل صار الفصل فيه عوضاً عن نقصان لحق الكلمة وذلك إنما يجئ في أكثر الأحوال في باب المؤنث، فيقولون: قامت هند، فإذا فصلوا بينهما قالوا: قام اليوم هند)).

النُّصوص، ولَعلَّ مِن أَهمهم البقاعيَّ في كتابه نَظْم الدُّرَر؛ حيث دَرَسَ هذا الموضُوعَ وَبَحَثَ، فيه، عن تَوجيهاتٍ دَلاليَّةٍ تَختلفُ عَمَّا استقرَّ عندَ الدَّارسينَ السَّابقينَ واللَّاحقينَ.

دَلالاتُ التَّذْكيرِ عِنْدَ البِقَاعِيِّ:

وَقَد وَجَدْنَا عِنْدَ البِقَاعِيِّ وَقَفَاتٍ لُغويّةً مُهمةً، في دِراسَةِ هَذهِ الظّاهرةِ وتَوجيهها في القُرآنِ الكَريمِ تَوجيهًا دَلاليًا، يَخْرُجُ بالتّذكيرِ والتّأنيثِ إلى آفاقٍ بلاغيّةٍ ومَعنويّةٍ رَحْبةٍ، مِن غيرِ تَضعيفٍ أَو تَوهينٍ لِقواعدِ التّذكيرِ والتّأنيثِ الّتي قَنَّنَها القُدمَاء. وفي مَا يَأتي دِرَاسَةٌ للآياتِ القُرآنيّةِ الكَريمةِ الّتي بَحَثَ فِيها البقاعيُّ عن دَلالاتٍ جَديدةٍ للتّذكيرِ:

١. قَالَ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[سورة البقرة: ٢٧٥].

وَقَفَ القُدَمَاءُ عندَ تَذكيرِ الفعلِ (جَاءَ) في الآيةِ الكَريمةِ عَلَى الرَّغمِ من أَنَّ فاعلَه (مَوْعِظَة) مُؤنّثٌ، وَفسَّروه بأَنَّ الموعِظَة يُرادُ بها الوَعْظُ؛ قَالَ الفرَّاء (ت ٢٠٧هـ): ((فَمَن أَنَّث أَخرَجَ الكَلامَ على اللَّفْظِ، ومَن ذكَّرَ ذَهَب إلى تَذكيرِ المصدَرِ))(٦٤). وَقَالَ الزَّجَّاجُ (ت ٣١١هـ): ((جَازَ تذكيرُ (جاءَه)،... ، لأَنّ كُلَّ تَأنيثٍ لَيسَ بِحَقيقيٍّ فتَذكيرُه جائزٌ أَلا ترى أَنَّ الوَعْظَ والموعظَةَ مُعبِّرانِ عن مَعنى واحِد))(٦٥). وَذَكَر مَكي بنُ أَبي طَالِب القيسيّ (ت ٤٣٧هـ) ثلاثةَ آراءٍ في تَوجيهِ التّذكيرِ؛ قَالَ: ((ذكَّر (جَاءَ) حَمَلَه على المَعْنى لأَنَّهُ بِمَعْنى: فَمن جَاءَهُ وعظ، وَقيل ذُكّر لِأَن تَأْنيث الموعِظَة غيرُ حَقيقيّ إِذْ لَا ذَكَرَ لَهَا

(٦٤) معاني القرآن للفراء: ١/ ١٢٥. وينظر فيه: ١/ ٣٥٦.

(٦٥) معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٣٥٨، وينظر فيه أيضا: ١/ ١٢٩، وإعراب القرآن للنحاس: ١/ ١٣٤، ٢/ ٤١، والكشف والبيان: ٢/ ٢٨٣، وتفسير البغوي: ١/ ١١٣.

من لَفظهَا، وَقيل ذُكِّر لِأَنَّهُ فرق بَين فعل الْمُؤَنَّث وَبَينه بِالْهَاءِ))[٦٦]. وَقَالَ ابنُ عَطِيةَ (ت ٥٤٢هـ): ((وسقطتْ علامةُ التّأنيثِ في قوله: (فَمَنْ جاءَهُ) لأَنَّ تأنيثَ الموعظةِ غيرُ حقيقيٍّ وهو بمعنى وَعْظ))[٦٧]. وَقَالَ في مَوضع آخَرَ: ((فَالتَّأْنِيثُ هُوَ الْأَصْلُ وَالتَّذْكِيرُ يَحْسُنُ إِذَا كَانَ التَّأْنِيثُ غَيْرَ حَقِيقِيٍّ[٦٨]، سِيَّمَا إِذَا وَقَعَ فاصِلٌ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْفَاعِلِ)). وعَلَّلَ أبو حَيانَ الأَندلسيّ (ت٧٤٥هـ) التّذكيرَ بوُجودِ الفَاصلِ بيْنَ الفعلِ والفَاعلِ، وَبأَنَّ تأنيثَ (الموعظَة) مَجازيٌّ لا حَقيقيٌّ؛ قَالَ: ((حَذْفُ تَاءِ التَّأْنِيثِ مِنْ: جَاءَتْهُ، لِلْفَصْلِ، وَلِأَنَّ تَأْنِيثَ الْمَوْعِظَةِ مَجَازِيٌّ))[٦٩].

(٦٦) مشكل إعراب القرآن: ١/ ١٤٣، وإعراب القرآن للباقولي المنسوب خطأ للزجاج: ٢/ ٦١٩.
(٦٧) المحرر الوجيز: ١/ ٣٧٢، وينظر: الأصول في النحو: ١/ ١٧٣، والخصائص: ٢/ ٤١٤، ومفاتيح الغيب: ٧/ ٧٩، والتبيان في إعراب القرآن: ١/ ٢٢٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٥٧، واللباب في علوم الكتاب: ٣/ ٢٤٤.
(٦٨) مفاتيح الغيب: ١٠/ ١٣٩.
(٦٩) البحر المحيط: ٢/ ٧٠٨.

يَتحصَّلُ، لَدَيْنَا، مِن التَّأمُّلِ في تَوجيهَاتِ القُدَمَاءِ لِتَذكيرِ الفِعْلِ، عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ فَاعِلَه مُؤَنَّثٌ، أَنَّهَا تَنْتَهِي إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ، أَوَّلُهَا: الحَمْلُ عَلَى المَعْنَى بِتَفْسِيرِ المَوْعِظَةِ بِالوَعْظِ، وَثَانِيهَا: كَوْنُ الفَاعِلِ (مَوْعِظَة) مَجَازِيَّ التَّأْنِيثِ، وَثَالِثُهَا: وُجُودُ الفَاصِلِ بَيْنَ الفِعْلِ وَفَاعِلِه المؤَنَّث.

فِي حِين وَجَدَ البِقَاعِيُّ فِي تَذْكِيرِ الفِعْلِ (جَاء) فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، دَلَالَةً جَدِيدَةً، وَهِيَ أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ رَفِيعَةُ الدَّرَجَةِ، وَلِذَا رَفَعَ شَأْنَهَا بِأَنْ عَبَّرَ عَنْهَا بِالتَّذْكِيرِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى مَنْزِلَةً مِن التَّأْنِيثِ؛ قَالَ: ((قَولُه: (فَمَن جَاءَه)،...، أَطْلَقَ الكَلِمَةَ مِن عَلَامَةِ التَّأْنِيثِ النَّازِلِ الرُّتْبَةِ تَرْفِيعًا لِقَدْرِ هَذِهِ المَوْعِظَةِ الخَفِيَّةِ المُدْرَكِ العَظِيمَةِ المَوْقِع))[٧٠].

٢. ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[سورة آل عمران: ٨٦].

(٧٠) نظم الدرر: ٤/ ١٣١.

يَذْكُرُ المفَسِّرُونَ أَنَّ (البَيِّنَات)، في الآيَةِ، يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهَا: مَا بَيَّنَ اللهُ لَهُم فِي التَّورَاةِ وَالإِنْجِيلِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهَا: مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِن الكِتَابِ وَالآيَاتِ وَالشَّوَاهِدِ وَالمعْجِزَاتِ[٧١].

وَمُنْتَهَى مَا قِيْلَ فِي تَوْجِيهِ تَذْكِيرِ الفِعْلِ (جَاءَ) فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ مَعَ أَنَّ الفَاعِلَ (البَيِّنَات) مُؤَنَّثٌ، ثَلَاثَةُ أُمُورٍ: الأَوَّل: أَنَّ الفَاعِلَ مُؤَنَّثٌ مَجَازِيُّ التَّأْنِيثِ وَلَيْسَ حَقِيقِيَّ التَّأنِيثِ. وَالثَّانِي: حَمْلُ التَّذكِيرِ عَلَى المعْنَى، لِأَنَّ (البَيِّنَات)، هُنَا، بِمَعْنَى: الدَّلِيلِ؛ قَالَ العُكْبَرِيُّ: ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾: إِنَّمَا حَذَفَ التَّاءَ؛ لِأَنَّ تَأْنِيثَ الْبَيِّنَةِ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ؛ وَلِأَنَّهَا بِمَعْنَى الدَّلِيلِ))[٧٢]. وَالأَمْرُ الثَّالِث، ذَكَرَهُ ابنُ عَادِلٍ الحَنْبَلِيّ (ت٧٧٥ هـ)، وَهُوَ وُجُودُ فَاصِلٍ بَيْنَ الفِعْلِ وَفَاعِلِهِ، قَالَ: ((وَذَكَّرَ الفعلَ في قولِه: ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ لِلْفَصْلِ وَلِكَونِهِ غَيرَ حَقِيقِيٍّ؛ لأَنَّه بِمَعْنَى الدَّلائِلِ. وَقِيلَ: لِجَوازِ حَذْفِ عَلامَةِ التَّأنِيثِ مِن الفِعلِ -إِذَا كَانَ فِعْلُ المؤَنَّث مُتَقَدِّماً))[٧٣].

فِي حِيْنِ رَبَطَ البِقَاعِيُّ بَيْنَ تَذْكِيرِ الفِعْلِ وَسِيَاقِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، وَوَجَدَ أَنَّ إِسْقَاطَ التَّاءِ مِن الفِعْلِ (جَاءَ) أَضْفَى عَلَى (البَيِّنَات) صِفَةَ القُوَّةِ وَالقَطْعِيَّةِ، قَالَ: ((﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾، أَيْ القَاطِعَةِ بِأَنَّه حَقٌّ وَأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ قَطْعًا، لَا شَيْءَ أَقْوَى مِن بَيَانِهِ وَلَا أَشَدَّ مِن ظُهُورِهِ بِمَا أَشْعَرَ بِهِ إِسْقَاطُ تَاءِ التَّأنِيثِ مِن: جاء))[٧٤].

وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[سورة آل عمران: ١٠٥]، فَقَد فَسَّرَ النَّحّاسُ (ت ٣٣٨هـ) تَذْكِيرَ الفِعْلِ بحمله عَلَى الجَمْعِ، فِي حِين يُحْمَلُ التَّأْنِيثِ عَلَى الجَمَاعَةِ؛ قَالَ: ((جَاءهُم

(٧١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٤٣٩، والوسيط في تفسير القرآن المجيد: ١/ ٤٦٠، والكشاف: ١/ ٣٨١، ومفاتيح الغيب: ٨/ ٢٨٣، ومدارك التنزيل: ١/ ٢٧٢.

(٧٢) التبيان في إعراب القرآن: ١/ ٢٨٤.

(٧٣) اللباب في علوم الكتاب: ٥/ ٤٥٢.

(٧٤) نظم الدرر: ٤/ ٤٧٦.

مُذكَّر عَلَى الجَمِيعِ وَجَاءَتهم عَلَى الجَمَاعَةِ))[٧٥]. في حين أَشَارَ الرَّازِي (ت ٦٠٦هـ) إِلَى جَوَازِ حَذْفِ العَلَامَةِ، لِأَنَّ الفِعْلَ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الفَاعِلِ؛ قَالَ: ((إِنَّمَا قَالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ (جَاءَتْهُمْ) لِجَوَازِ حَذْفِ عَلَامَةِ مِنَ الْفِعْلِ إِذَا كَانَ فِعْلُ الْمُؤَنَّثِ مُتَقَدِّمًا))[٧٦]. وَوَجَّهَ السَّمِينُ الحَلَبِيُّ (ت ٧٥٦هـ) تَذْكِيرَ الفِعْلِ بِكَونِ الفَاعِلِ (البَيِّنَات) مَجَازِيَّ التَّأْنِيثِ؛ قَالَ: ((وَقَولُه: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ لم يُؤنّث الفِعْل لِلْفَصْلِ وَلِكَونِه غَيْرَ حَقِيقِيِّ بِمَعنَى الدَّلَائِلِ))[٧٧]. في حين ذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ الفِعْلَ أُعْرِيَ عن التَّأْنِيثِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَعْظِيمِ (البَيِّنَات) وَوُضُوحِهَا وَتَفْخِيمِ مَنْزِلَتِهَا، وَعَلَى الرَّغمِ مِن عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُنزِلَتْ إِلَيهِم وَتَفَرَّقُوا مِن بَعدِهَا؛ قَالَ: ((وَلَمَّا ذَمَّهُم بِالاخْتِلَافِ الَّذِي دَلَّ العَقْلُ عَلَى ذَمِّهِ زَادَ فِي تَقْبِيحِهِ بِأَنَّهُم خَالَفُوا فِيهِ بَعْدَ نَهْيِ العَقْلِ وَوَاضِحِ النَّقْلِ فَقَالَ: (من) أَي وَابْتَدَأَ اخْتِلَافُهم مِن الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ مِن (بَعْدِ مَا جَاءَهُم) وَعَظَّمَهُ بِإِعْرَائِهِ عَن التَّأْنِيثِ (البَيِّنَات) أَي بِمَا يَجْمَعُهُم وَيُعْلِيهِم وَيَرْفَعُهم وَيُوْجِبُ اتِّفَاقَهُم وَيَنْفَعُهم، فَأَرْدَاهُم ذَلِكَ الافْتِرَاقُ وَأَهْلَكَهُم))[٧٨].

٣. ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٤]. جَاءَ الفِعْلُ (كُذِّبَ) المسنَدُ إِلَى نَائِبِ الفَاعِلِ (رُسُل) مُذَكَّرًا، في حين وَرَدَ الفِعْلُ نَفْسُهُ مُؤَنَّثًا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [سورة الأنعام: ٣٤]. وَقَد ذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ الفِعْلَ (كُذِّبَ) وَرَدَ، فِي آيَةِ آلِ عِمْرَانَ، مُذَكَّرًا لِإِزَالَةِ أَيِّ نَوْعٍ مِن الضَّعْفِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيهِ التَّأْنِيثُ؛ قَالَ: ((أَسْقَطَ تَاءَ التَّأْنِيثِ لِأَنَّهَا رُبَّمَا دَلَّتْ عَلَى نَوْعِ ضَعْفٍ فَقَالَ: (كُذِّبَ رُسُلٌ))[٧٩].

(٧٥) إعراب القرآن للنحاس: ١/ ١٧٤.
(٧٦) مفاتيح الغيب: ٨/ ٣١٧.
(٧٧) الدر المصون: ٣/ ٣٣٩.
(٧٨) نظم الدرر: ٥/ ٢٠.
(٧٩) نظم الدرر: ٥/ ١٤٤.

٤. ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[سورة النساء: ٤٦].

الكَلِمُ: اسْمُ جِنْسٍ يَجُوزُ فِيهِ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ، وَقَد جَاءَ الضَّمِيرُ العَائِدُ إِلَيهِ فِي (مَوَاضِعه) مُذَكَّرًا[٨٠]. وَيَرَى البِقَاعِيُّ فِي اخْتِيَارِ التَّذْكِيرِ هُنَا دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ يُرِيدُ الكَلَامَ؛ أَي أَنَّهُم يُحَرِّفُونَ مَوَاضِعَ الكَلَامِ، لِأَنَّ التَّغْيِيرَ فِي كَلِمَةٍ يُؤَدِّي إِلَى تَغْيِيرِ مَعْنَى الكَلَامِ كُلِّهِ؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَتِ الكَلِمَةُ إِذَا غُيِّرَتْ تَبِعَهَا الكَلَامُ وَهُوَ المَقْصُودُ بِالذَّاتِ، نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ بِتَذْكِيرِ الضَّمِيرِ، فَقَالَ: (مَوَاضِعه) أَي الَّتِي هِيَ بِهِ أَلْيَقُ، فَيَتِمّ ضَلَالُهُم وَإِضْلَالُهُم، وَهُوَ يَشْمَلُ مَا إِذَا كَانَ المَعْنَى المُغَيَّرُ إِلَيْهِ بَعِيدًا عَن المُغَيَّرِ أَو قَرِيبًا))[٨١].

٥. ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٧٨].

وَقَفَ النَّحْوِيُّونَ عِنْدَ مَجِيءِ اسْمِ الإِشَارَةِ (هَذَا) مُذَكَّرًا عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى مُؤَنَّثٍ، وَهُوَ الشَّمْسُ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِـ(بَازِغَة)، وَوَجَّهُوا ذَلِكَ بِأَنَّ المَعْنَى هَذَا الشَّيْءُ أَو الشَّخْصُ أَو الطَّالِعُ أَو الكَوْكَبُ رَبِي[٨٢]، وَذَهَبَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّهُ رَأَى ضَوْءَ الشَّمْسِ وَلَيْسَ الشَّمْسَ نَفْسَهَا؛ فَهُوَ ((إِنَّمَا قَالَ هَذَا وَلَم يَقُلْ هَذِهِ لِأَنَّهُ رَأَى ضَوْءَ الشَّمْسِ وَلَم يَرَ عَيْنَ الشَّمْسِ؛ فَرَدَّهُ إِلَى الشُّعَاعِ))[٨٣]. وَذَكَرَ نَحْوِيُّونَ آخَرُونَ

(٨٠) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ١/ ٣٦٣، والدر المصون: ٣/ ٦٩٦، واللباب في علوم الكتاب: ٦/ ٤٠٦.

(٨١) نظم الدرر: ٥/ ٢٩٢.

(٨٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٥/ ٥٣، والكشف والبيان: ٤/ ١٦٥، والنكت في القرآن الكريم: ٢١٧، و تفسير البغوي: ٢/ ١٣٩، وإعراب القرآن للباقولي المنسوب خطأ للزجاج: ٢/ ٦١٩.

(٨٣) الكشف والبيان: ٤/ ١٦٥، وزاد المسير: ٢/ ٤٨، ومفاتيح الغيب: ١٣/ ٤٦، والتبيان في إعراب القرآن: ١/

أَنَّهُ من بَاب الحَمْل عَلَى المعْنَى بِأَنَّهُ حَمَلَ الشَّمْسَ عَلَى الضِّيَاء أَو النُّور وَلَيْسَ عَلَى أَنَّهُ رَأَى الضَّوْءَ وَلَم يَرَ الشَّمْسَ؛ فَهُوَ ((إِنَّمَا قَالَ: هَذَا، وَالشَّمْسُ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّ الشَّمْسَ بِمَعْنَى الضِّيَاء وَالنُّور، فَحمل الكَلَام عَلَى التَّأْوِيل، وَأَعَانَ عَلَى التَّذْكِير أَيْضًا أَنَّ الشَّمْسَ لَيْسَ فِيهَا عَلَامَةُ التَّأْنِيث))[٨٤].

وَذَهَبَ مُفَسِّرُونَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً﴾ من كَلَام الله تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ من كَلَام إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَلَعَلَّهَا فِي لُغَتِهِ لَيْسَتْ مُؤَنَّثَةً كَمَا فِي لُغَةِ العَرَبِ؛ قَالَ أَبُو الحَسَنِ المجَاشعيّ (ت ٤٧٩هـ): ((وَعِنْدِي أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً﴾ إِخْبَارٌ من الله تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ من كَلَام إِبْرَاهِيمَ عليه السلام. وَالشَّمْسُ مُؤَنَّثَةٌ فِي كَلَام العَرَب فَأَمَّا فِي كَلَام سِوَاهُم فَيَجُوزُ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام لَم يَكُنْ عَرَبِيًّا فَحَكَى لَنَا اللهُ تَعَالَى مَا كَانَ فِي لُغَتِهِ))[٨٥].

وَذَكَرَ الرَّازِي هَذِه الآرَاءَ وَاسْتَنْبَطَ من هَذَا التَّعْبِير القُرآنِيِّ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الغَايَةَ من التَّعْبِير بِالمذَكَّر هُيَ رِعَايَةُ الأَدَب عِندَ التَّعبِير عَن الرُّبُوبِيَّة، بِعَدَم استِعمَال اللَّفْظ الدَّالِّ عَلَى التَّأنِيث؛ قَالَ: ((الْمَقْصُودُ مِنْهُ رِعَايَةُ الْأَدَبِ، وَهُوَ تَرْكُ التَّأْنِيثِ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى الرُّبُوبِيَّةِ))[٨٦].

وَوَافَقَهُ النَّسَفِي (ت ٧١٠هـ) عَلَى هَذَا التَّوجِيه؛ قَالَ: ((وَإِنَّمَا ذَكَّرَه لِأَنَّهُ أَرَادَ الطَّالِعَ أَو لِأَنَّه جَعَلَ المبْتَدَأَ مِثْلَ الخَبَر لِأَنَّهُمَا شَيءٌ وَاحِدٌ مَعْنًى، وَفِيهِ صِيَانَةَ الرَّبِّ عن شُبْهَةِ التَّأنِيث وَلِهَذَا قَالُوا فِي صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى عَلَّام وَلَم يَقُولُوا عَلَّامَة وَإِنْ كَانَ الثَّانِي أَبلَغَ تَفَادِيًا من عَلَامَةِ

(٨٥) النكت في القرآن الكريم: ٢١٨، ونقل هذا الرأي صاحب البحر المحيط: ٤/ ٥٦٦، وحاشية الصبان: ١/ ٢٠٣.

(٨٦) مفاتيح الغيب: ١٣/ ٤٦، وينظر: البحر المحيط: ٤/ ٥٦٦.

٥١٢، والجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٧، ومدارك التنزيل: ١/ ٥١٧، والبحر المحيط: ٤/ ٥٦٦.

(٨٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٢/ ٢٩١، وينظر: زاد المسير: ٢/ ٤٨، ومفاتيح الغيب: ١٣/ ٤٦، والتبيان في إعراب القرآن: ١/ ٥١٢، والبحر المحيط: ٤/ ٥٦٦.

التَّأنيث))[٨٧]. في حين قَرَأَ البِقَاعِيُّ الآيَةَ قِرَاءَةً جَدِيدَةً وَلَم يَجْعَلْهَا حِوَارًا دَاخِلِيًّا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَنَفْسِهِ وَجَعَلَهَا تَعْبِيرًا لُغَوِيًّا مَقْصُودًا وَمَبْنِيًّا بِدِقَّةٍ أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام من خَلَالِهِ أَنْ يُوصِلَ إِلَى المخَاطَبِينَ رِسَالَةً بِأَنَّ الشَّمْسَ المؤَنَّثَةَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ رَبًّا؛ قَالَ: ((قَالَ: (فَلَمَّا رَأَى) أَي بِعَينِهِ (الشَّمْسَ بَازِغَة) أَي عِنْدَ طُلُوعِ النَّهَارِ وَإِشْرَاقِ النُّورِ الَّذِي ادَّعَوا فِيهِ مَا ادَّعَوا (قَالَ) مُبَيِّنًا لِقُصُورِ مَا هُو أَكْبَرُ من النُّورِ وَهُوَ مَا عَنْهُ النُّورُ[٨٨] (هَذَا) مُذَكِّرًا إِشَارَتَهُ لِوُجُودِ المسَوِّغِ، وَهُوَ تَذْكِيرُ الخَبَرِ إِظْهَارًا لِتَعظِيمِهَا إِبْعَادًا عَنِ التُّهمَةِ، وَتَنْبِيهًا من أَوَّلِ الأَمْرِ عَلَى أَنَّ المؤَنَّثَ لَا يَصْلُحُ لِلرُّبُوبِيَّةِ (رَبِّي) كَمَا قَالَ فِيمَا مَضَى؛ ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بَيَانًا لِلْوَجْهِ الَّذِي فَارَقَ فِيهِ مَا مَضَى فَأَوْرَثَ شُبْهَةً، فَقَالَ: (هَذَا أَكْبَر) أَي مِمَّا تَقَدَّمَ (فَلَمَّا أَفَلَت) أَي غَرُبَتْ فَخَفِيَ ظُهُورُهَا وَغَلَبَ نُورَهَا وَهَزَمَهُ جَيْشُ الظَّلَامِ بِقُدْرَةِ الملِكِ العَلَّامِ (قَالَ يَا قَوم) فَصَرَّحَ بِأَنَّ الكَلَامَ لَهُم أَجْمَعِينَ، وَنَادَى عَلَى رُؤُوسِ الأَشهَادِ))[٨٩]. وَيَبدُو لَنَا أَنَّ هَذِهِ الدَّلَالَةَ الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا البِقَاعِيُّ لِتَذكِيرِ اسْمِ الإِشَارَةِ الَّذِي يَعُودُ عَلَى المؤَنَّثِ (الشَّمس) مُتَكَلَّفَةٌ، هُنَا، وَتَنْطَلِقُ من رُؤْيَةٍ سَابِقَةٍ تَحْكُمُ صَاحِبَهَا، إِذْ نَظَرَ إِلَى الرَّبِّ سُبْحَانَه وَتَعَالَى من مَنْظُورٍ إِنْسَانِيٍّ قَاصِرٍ، يُرِيدُ تَصْنِيفَهُ تَحْتَ أَحَدِ الصِّنْفَيْنِ دُونَ الآخَرِ، فِي حِين أَنَّهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى قَالَ عن نَفْسِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١].

٦. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦].

كَثُرَ كَلَامُ النَّحوِيِّينَ وَالمفَسِّرِينَ فِي تَوجِيهِ تَذكِيرِ (قَرِيب) فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ، وَأَهَمُّ مَا قِيلَ فِيهَا مَا يَأْتِي:

انَّ كَلِمَةَ (قَرِيب) إِذَا لَم تَدُلّ عَلَى

(٨٧) مدارك التنزيل: ١/ ٥١٧، وينظر: البحر المحيط: ٤/ ٥٦٦.

(٨٨) تركيب قد يبدو غامضا، ومعنى ما عنه النور، أي الذي يصدر عنه النور وهو يريد هنا: الشمس.

(٨٩) نظم الدرر: ٧/ ١٦١.

قَرَابَةٍ فِي النَّسَبِ فيَجُوزُ فِيهَا التَّذكِيرُ وَالتَّأنِيثُ فِي كَلَامِ العَرَبِ، فِي حِين أَنَّهَا إِذَا دَلَّتْ عَلَى القُرْبِ فِي النَّسَبِ فَإِنَّهُم لا يَستَعمِلُونَهَا إِلّا مُؤَنَّثَةً(٩٠). وَقِيلَ إِنَّهَا تَدُلّ عَلَى تَذكِيرِ المَكَانِ، وَكَأَنَّهَا صِفَةٌ لِمَحذُوفٍ وَالتَّقدِيرُ: فِي مَوضِعٍ قَرِيبٍ، أَو شَيءٍ قَرِيبٍ(٩١). وقيل إِنَّ الرَّحْمَةَ فِي الآيَةِ مَحمُولَةٌ عَلَى مَعنَى: المَطَرِ(٩٢)، أَو الغُفرَانِ أَو الرّحمِ(٩٣)، أَو الثَّوَابِ(٩٤)، أَو العَفوِ أَو الإِنْعَامِ(٩٥)، أَو الإِحسَانِ(٩٦)، لِأَنَّهَا بِمَعنًى وَاحِدٍ، وَلِأَنَّ تَأنِيثَ الرَّحمَةِ لَيسَ حَقِيقِيًّا(٩٧). وَقِيلَ إِنَّ القَرِيبَ وَالبَعِيدَ -إِذَا دَلَّا عَلَى الزَّمَانِ أَو المَكَانِ -يَستَوِي فِيهِمَا المُذَكَّرُ وَالمُؤَنَّثُ وَالجَمْعُ(٩٨). وَذَكَر بَعْضُهُم أَنَّ (رَحْمَة)

(٩٠) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ٣٨٠، وإعراب القرآن للنحاس: ١/ ١٠٨، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٦، والبحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(٩١) ينظر: مجاز القرآن: ١/ ٢١٦، و الكشاف: ٢/ ١١١، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٦، ومدارك التنزيل: ١/ ٥٧٤، والبحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(٩٢) ينظر: معاني القرآن للأخفش: ١/ ٣٢٧، والمحرر الوجيز: ٢/ ٤١١، وإعراب القرآن للباقولي المنسوب خطأ للزجاج: ٢/ ٦١٩، وزاد المسير: ٢/ ١٣٠، والبحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(٩٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢/ ٥٧، والمحرر الوجيز: ٢/ ٤١١، وزاد المسير: ٢/ ١٣٠، ومفاتيح الغيب: ١٤/ ٢٨٦، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٦، ومدارك التنزيل: ١/ ٥٧٤، والبحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(٩٤) ينظر: الكشف والبيان: ٤/ ٢٤١، والمحرر الوجيز: ٢/ ٤١١، و البحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(٩٥) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٢/ ٣٧٨، والمحرر الوجيز: ٢/ ٤١١، وزاد المسير: ٢/ ١٣٠، ومفاتيح الغيب: ١٤/ ٢٨٦، والبحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(٩٦) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٤/ ٢٥٢.

(٩٧) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٣٤٤، والكشاف: ٢/ ١١١، ومفاتيح الغيب: ١٤/ ٢٨٦، و ومدارك التنزيل: ١/ ٥٧٤، والبحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(٩٨) ينظر: الكشف والبيان: ٤/ ٢٤١، وغرائب التفسير: ١/ ٤٠٨، وتفسير البغوي: ٢/ ١٩٩، والمحرر الوجيز: ٢/ ٤١١، والبحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

أُضيفت إِلَى المذَكَّر (الله) فَاكْتَسَبَت منهُ التَّذكيرَ وَأُخرجَت مُخْرَجه[٩٩].

في حين ذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ (رَحمَة) مَصدَرٌ، وَحَقُّ المصَادِرِ التَّذْكِير[١٠٠].

وَاعْتَلَّ آخَرُونَ بِأَنَّ (قَرِيب) عَلَى وَزْنِ (فَعِيل) بِمَعنَى (فَاعِل)، وَلَكِنَّهُ شُبِّهَ بـ(فَعِيل) الَّذِي بِمَعنَى (مَفعُول)؛ أَي: مُقَرَّبَة[١٠١]. وَقِيلَ إِنَّ المعنَى عَلَى النَّسَبِ؛ أَي أَنَّ رَحمَةَ الله ذَاتُ قُرْبٍ من المحْسِنِينَ[١٠٢].

وَقَد أَشَارَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور إِلَى هَذِهِ الوُجُوهِ، وَرَجَّحَ الأَوَّلَ مِنهَا؛ مُبَيِّنًا أَنَّ هَذَا من بَابِ دِقَّةِ العَرَبِيَّةِ فِي التَّعبِيرِ عَن اللَّطَائِفِ وَالتَّمييزِ بَيْنَ الفُرُوقِ وَالمعَانِي بِالأَلْفَاظِ، إِزَالَةً لِلإِبْهَامِ؛ قَالَ: ((وَأَحْسَنُهَا -عِنْدِي- قَوْلُ الْفَرَّاءِ وَأَبِي عُبَيْدَةَ: أَنَّ قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا إِذَا أُطْلِقَ عَلَى قَرَابَةِ النَّسَبِ أَوْ بُعْدِ النَّسَبِ فَهُوَ مَعَ الْمُؤَنَّثِ بِتَاءٍ وَلَا بُدَّ، وَإِذَا أُطْلِقَ عَلَى قُرْبِ الْمَسَافَةِ أَوْ بُعْدِهَا جَازَ فِيهِ مُطَابَقَةُ مَوْصُوفِهِ وَجَازَ فِيهِ التَّذْكِيرُ عَلَى التَّأْوِيلِ بِالْمَكَانِ، وَهُوَ الْأَكْثَرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [سورة هود: ٨٣] وَقَالَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٦٣]. وَلَمَّا كَانَ إِطْلَاقُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِعَارَةِ مِنْ قُرْبِ الْمَسَافَةِ جَرَى عَلَى الشَّائِعِ فِي اسْتِعْمَالِهِ فِي الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ، وَهَذَا مِنْ لَطِيفِ الْفُرُوقِ الْعَرَبِيَّةِ فِي اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ إِزَالَةً لِلْإِبْهَامِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ))[١٠٣].

وَقَد وَجَدَ البقَاعِيُّ أَنَّ تَذكِيرَ (قَرِيب) هُنَا يَدُلُّ عَلَى تَفخِيمِ رَحمَةِ الله،

(٩٩) ينظر: الكشف والبيان: ٤/ ٢٤١، ومدارك التنزيل: ١/ ٥٧٤، والبحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(١٠٠) ينظر: الكشف والبيان: ٤/ ٢٤١، ومفاتيح الغيب: ١٤/ ٢٨٦، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٦، والبحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(١٠١) ينظر: الكشاف: ٢/ ١١١، وإعراب القرآن للباقولي المنسوب خطأ للزجاج: ٢/ ٦١٩، ومدارك التنزيل: ١/ ٥٧٤، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(١٠٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٤/ ٢٨٦، و البحر المحيط: ٥/ ٧٢، وروح المعاني: ٤/ ٣٨٠-٣٨٣.

(١٠٣) التحرير والتنوير: ٨-ب/ ١٧٧.

وَسَوَّغَ تَذكِيرَهَا إِضَافَتُهَا إِلَى مُذَكَّرٍ؛ قَالَ: (((إِنَّ رَحْمَت اللهِ) أَي إِكْرَام ذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ لِمَن يَدعُوهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، وَفَخَّمَهَا بِالتَّذكِيرِ لِإِضَافَتِهَا إِلَى غَيرِ مُؤَنَّثٍ،... ، فَقَالَ: (قَرِيب)))[١٠٤].

وَقَرِيب مِن ذَلِكَ مَا نَجِدُهُ عِندَ الدّكتُور فَاضِل السَّامرائِيِّ الَّذِي لَمَسَ فِي هَذَا التَّذكِيرِ بِأَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَرَحمَتَهُ قَرِيبَانِ مِن المحْسِنِينَ؛ قَالَ: ((عَبَّرَ عَن رَبِّنَا بِالتَّذكِيرِ فَرَحمَةُ اللهِ قَرِيبٌ اكْتَسَبَت التَّذكِيرَ، هَذَا أَمرٌ. لِمَاذَا اخْتَارَ التَّذكِيرَ وَلَم يَجْعَلْه عَلَى التَّأنِيثِ؟. رَبُّنَا تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَنَّ رَحمَتَهُ وَهُوَ قَرِيبٌ كِلَاهُمَا اللهُ سُبحَانَه وَتَعَالَى قَرِيبٌ وَرَحمَتُه قَرِيبَةٌ أَيضًا. لَو قَالَ قَرِيبَةٌ كَانَت تَدُلُّ عَلَى الرَّحمَةِ فَقَط لَكِنَّ اللهَ سُبحَانَه وَتَعَالَى هُوَ قَرِيبٌ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾[سورة البقرة: ١٨٦]، أَي هُو وَرَحمَتُه قَرِيبٌ مِن المحسِنِينَ. هَذَا مِن بَابِ التَّوَسُّعِ فِي المعنَى))[١٠٥].

وَوَقَفَ البِقَاعِيُّ عَلَى اسْتِعمَالٍ قُرآنِيٍّ آخَرَ مُشَابِهٍ لِهَذَا الاستِعمَالِ، وَهُوَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾[سورة الشورى: ١٨]، إِذْ جَاءَ (قَرِيب) بِالتَّذكِيرِ، عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّهَا خَبَرٌ فِي المعْنَى عَن مُؤَنَّثٍ غَيرِ حَقِيقِيٍّ: (السَّاعَة)، وَقَد اسْتَنبَطَ مِن ذَلِكَ أَنَّ النَّصَّ أَرَادَ التَّعبِيرَ عَن شِدَّةِ السَّاعَةِ وَتَفخِيمِ أَهوَالِهَا وَقُرْبِهَا؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ تَأنِيثُ السَّاعَةِ غَيرَ حَقِيقِيٍّ لِأَنَّهَا بِمَعنَى الوَقْتِ، ذَكَّرَهَا فَقَالَ: (قَرِيب) فَأَفْهَمَ ذَلِكَ أَنَّهَا ذَاتُ الشَّدَائِدِ وَأَنَّ شَدَائِدَهَا ذُكُورُ الشَّدَائِدِ وَأَنَّ قُرْبَهَا أَسْرَعُ مِن لَمْعِ البَرْقِ لِمَا لَهُ مِن الثَّبَاتِ فِي الحَقِّ، أَو ذَكَّرَهَا عَلَى إِرَادَةِ السَّبَبِ أَي ذَات قُرْبٍ، أَو عَلَى حَذْفِ مُضَافِهِ أَي مَجِيئِهَا، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ دَالٌّ عَلَى تَفْخِيمِهَا أَي إِنَّكَ بِمَظِنَّةٍ مِن قُرْبِ القِيَامَةِ، فَيَقَعُ بِهِم مَا توعَّدُوا بِهِ مِمَّا

(١٠٤) نظم الدرر: ٧/ ٤٢٠.
(١٠٥) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ١٠٧٨.

يَنْبَغِي الإِشْفَاقُ مِنْهُ، فَيَظهَرُ فِيهَا العَدلُ بِمَوَازِينِ القِسْطِ لِجَمِيعِ الأَعْمَالِ ظُهُورًا لَا يَتَمَارَى فِيهِ أَحَدٌ فَيُشَرِّف مَن وَفَى، وَيُخْزِي مَن جَارَ وَجَفَا))[١٠٦].

٧. ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [سورة هود: ٦٦ -٦٧].

وَفِي حَذْفِ التَّاء من الفعْلِ (أَخَذَ) هُنَا أَقوَالٌ؛ أَحَدُهَا: أَنَّ الفِعْلَ مُشْتَقٌّ من فِعْلٍ فِي مَذْهَبِ المصْدَرِ، فَمَن أَنَّثَ الفِعْلَ حَمَلَ عَلَى اللَّفْظِ وَمَن ذَكَّرَ حَمَلَ عَلَى تَذكِيرِ المصْدَرِ[١٠٧]، وَذَلِكَ لِأَنَّ ((المصَادِرَ تَأْنِيثُهَا لَيْسَ بِالتَّأْنِيثِ اللَّازِمِ، فَيَجُوزُ تَذكِيرُ مَا خَرَجَ مِنْهَا عَلَى لَفْظِ المؤَنَّثِ وَتَأنِيثِه))[١٠٨]. الثَّانِي: لِوُجُودِ الفَاصِلِ بَيْنَ الفِعْلِ وَالفَاعِلِ[١٠٩]. وَالثَّالِثُ: حَمْلُ الصَّيْحَةِ عَلَى مَعْنَى الصِّيَاحِ[١١٠]. وَالرَّابِعُ: أَنَّ الصَّيْحَةَ مُؤَنَّثٌ مَجَازِيٌّ وَلَيْسَ حَقِيقِيًّا[١١١].

وَقَد وَازَنَ الكرمَانِيُّ (ت نحو: ٥٠٥ هـ) بَيْنَ التَّذكِيرِ فِي قَولِه تَعَالَى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [سورة هود: ٦٧]، وَالتَّأنِيثِ فِي قَولِه تَعَالَى: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [سورة هود: ٩٤]، مُبَيِّنًا حُسْنَ كُلٍّ مِنْهُمَا وَمَزِيَّتَهُ،

(١٠٦) نظم الدرر: ١٧/ ٢٨٢.
(١٠٧) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ١٢٥.
(١٠٨) جامع البيان: ٧/ ١٤٧.
(١٠٩) ينظر: مشكل إعراب القرآن: ١/ ٣٦٨، وغرائب التفسير: ١/ ٥١١، ونتائج الفكر في النحو: ١٣٠، ومفاتيح الغيب: ١٨/ ٣٧٠، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ٧٠٥، واللباب في علوم الكتاب: ٢/ ٩٩، ومعترك الأقران: ٣/ ٢٩٢.
(١١٠) ينظر: الأصول في النحو ١/ ١٧٤ مشكل إعراب القرآن: ١/ ٣٦٨، والوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٢/ ٥٨٠، وتفسير البغوي: ٢/ ٤٥٥، والمحرر الوجيز: ٣/ ١٨٦، ومفاتيح الغيب: ١٨/ ٣٧٠، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ٧٠٥، والجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٩٢، و معترك الأقران: ٣/ ٢٩٢.
(١١١) مشكل إعراب القرآن: ١/ ٣٦٨، والمحرر الوجيز: ٣/ ١٨٦.

قَالَ: ((لِمَ قَالَ هُنَا: (وَأَخَذَ)، وَقَالَ بَعْدَهَا: (وَأَخَذَت)؟. الجَوابُ: التَّذكيرُ مَعَ الحَائِلِ أَحسَنُ، وَهُوَ أَخَفُّ أَيضًا لِنُقصَانِ حَرْفٍ، وَهُوَ التَّاءُ، لَكِنَّهُ وَافَقَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى مَا بَعدَهَا، وَهُوَ قَولُهُ: (كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ). الخَطِيب: لَمَّا جَاءَ فِي قِصَّةِ شُعَيب مَرَّةً الرَّجْفَة، وَمَرَّةً الصَّيحَة وَمَرَّةً الظُّلَّة، ازْدَادَ التَّأْنِيثُ حُسْنًا))[١١٢].

فَالتَّعليلُ هُنَا لَفْظِيٌّ إيقَاعِيٌّ.

وَوَقَفَ السُّهَيْلِيُّ (ت ٥٨١هـ) عَلَى اسْتِعمَالِ الفِعلِ (أَخَذ) فِي الموضِعَين بَحَالَتَي التَّذكِيرِ وَالتَّأنِيث وَوَازَنَ بَيْنَهُمَا؛ قَالَ: ((فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا اسْتَوى ذِكْرُ التَّاءِ وَتَرْكُهَا فِي الفِعْلِ المَفْصُولِ عَنِ الفَاعِلِ المؤَنَّث، فَمَا الحِكْمَةُ لِاخْتِصَاصِهَا فِي الفِعْلِ فِي قِصَّةِ شُعَيب، وَحَذْفِهَا فِي قِصَّةِ صَالِح فِي قَولِه: (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ)؟. فَالجَوَابُ: أَنَّ الصَّيحَةَ فِي قِصَّةِ صَالِح فِي مَعنَى العَذَاب وَالخِزْي، إِذْ كَانَت مُنْتَظِمَةً بِقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [سورة هود: ٦٦]، فَصَارَت الصَّيحَةُ عِبَارَةً عَن ذَلِكَ الخِزْيِ وَعَن العَذَابِ المذكُورِ فِي الآيَة، فَقَوِيَ التَّذكِيرُ، بِخِلَافِ الآيَةِ الأُخْرَى، وَاللهُ أَعْلَمُ))[١١٣]. وَتَعلِيلُهُ هُنَا يَبدُو مَعْنَوِيًّا يَربِطُ سِيَاقَ القِصَّتَين بِاللَّفْظ.

فِي حِين عَلَّلَ البِقَاعِيُّ تَذكِيرَ الفِعْلِ (أَخَذ) هُنَا دَلَالِيًّا، مرجعا هَذَا التَّذكِيرَ إِلَى أَنَّهُ يُكْسِبُ الصَّيحَةَ: القُوَّةَ وَالعَظَمَةَ وَالتَّهوِيلَ، فَهِيَ صَيحَةٌ مُخِيفَةٌ؛ قَالَ: ((وَالخِزْيُ: العَيبُ الَّذِي تَظْهَرُ فَضِيحَتُهُ وَيُستَحَى مِن مِثْلِه؛ ثُمَّ بَيَّنَ إِيقَاعَهُ بِأَعْدَائِهِ بَعْدَ إِنْجَائِهِ لِأَولِيَائِهِ فَقَالَ مُعَظِّمًا لِلأَخْذِ بِتَذكِيرِ الفِعْلِ: (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيحَةُ) وَأَشَارَ إِلَى عَظَمَةِ هَذِهِ الصَّيحَةِ بِإِسقَاطِ عَلَامَةِ التَّأْنِيث وَسَبَّبَ عَنْهَا قَولَه: ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ أَي سَاقِطِينَ عَلَى وُجُوهِهِم))[١١٤].

٨. ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا

(١١٢) غرائب التفسير: ١/ ٥١١.

(١١٣) نتائج الفكر في النحو: ١٣٢.

(١١٤) نظم الدرر: ٩/ ٣٢٥-٣٢٦.

عَـٰبِدِينَ ﴾[سورة الأنبياء: ٧٣].

(إقَام) مَصْدَرٌ، وَأَصْلُهُ بِالتَّاءِ: (إقَامَة) وَلَكِنَّهَا حُذِفَتْ وَقَامَت الإِضَافَةُ[١١٥]، أو هَاءُ الضَّمِيرِ[١١٦] مقَامَهَا فِي التَّعويض. قَالَ الثَّعلَبِيُّ (ت٤٢٧هـ): ((وَإِنَّما استجيزَ سُقُوطُ الْهَاءِ من قَولِهِ (وَإِقام الصَّلاة) لإِضَافَتِهم إِيَّاه، وَقَالُوا: الخَافِضُ وَمَا خَفَض بمنزلَة الحَرف الوَاحِد. فَلِذَلِكَ أَسقَطُوهَا فِي الإِضَافَة. وَإِقام الصَّلاة أي إِقَامَة الصَّلاة فَحَذفَ الهَاءَ الزَّائِدَةَ لأَجل الإِضَافَة، لأَنَّ الخَافِضَ وَمَا خَفَضَ عِندَهُم كَالحَرف الوَاحِد فَاستَغنَوا بالمضَاف إِلَيه من الهَاء إِذْ كَانَت الهَاءُ عِوَضًا من الوَاو، وَلأَنَّ أَصلَ الكَلِمَة أَقومت إِقوَامًا فَاستَثقَلُوا الضَّمَّةَ عَلَى الوَاو فَسَكَّنُوهَا فَاجْتَمَعَ حَرفَانِ سَاكِنَانِ فَأَسْقَطُوا الوَاوَ وَنَقَلُوا حَرَكَتَه إِلَى القَاف، وَأَبدَلُوا من الوَاو المحذُوفَة هَاءً فِي آخِرِ الحرف كَالتَّكثِير للحَرف))[١١٧].

وَقَد بَحَثَ السَّمِينُ الحَلَبِيُّ عَن أَثَرِ حَذْف التَّاء فِي الجَانِب الصَّوتِيِّ للنَّصِّ، مُبَيِّنًا أَنَّ هَذَا الحَذفَ نَاسَبَ مَا بَعدَهُ، قَالَ عَن حَذف التَّاء: ((وحَسَّن ذلك أنه قابَلَ (وَإِيتَآءَ الزكاة)، وهو بغير تاء، فتقع الموازنةُ بين قوله ﴿ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾))[١١٨].

فِي حِينَ وَجَدَ البِقَاعِيُّ فِي حَذفِ التَّاءِ مِن كَلِمَة (إقَام) دَلالَةً عَلَى تَعظِيم الصَّلاة بِالتَّعبِير عَنهَا بِالمذَكَّر؛ قَالَ ((وَلَمَّا كَانَت الصَّلاةُ أُمَّ الخَيْرَاتِ، خَصَّهَا بِالذِّكْرِ فَقَالَ: ﴿ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: الإِضَافَةُ عِوَضٌ عَن تَاءِ التَّأْنِيث. يعني:

(١١٥) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٢٥٤، ومعاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٣٩٨، وإعراب القرآن للنحاس: ٣/ ٥٣، والمحتسب: ١/ ١٤٤، وغرائب التفسير: ٢/ ٧٩٩، وإعراب القرآن للباقولي المنسوب خطأ للزجاج: ٣/ ٨١٧، وزاد المسير: ٣/ ٢٠١، ومفاتيح الغيب: ٢٤/ ٣٩٨، والتبيان في إعراب القرآن ٢/ ٩٢٢، ومدارك التنزيل: ٢/ ٤١٣، والبحر المحيط: ٥/ ٤٢٨، وبدائع الفوائد: ٣/ ٣٥، والدر المصون: ٨/ ١٨٣، و التحرير والتنوير: ١٨/ ٢٤٩.

(١١٦) ينظر: المحرر الوجيز: ٣/ ٤٠، و البحر المحيط: ٥/ ٤٢٨.

(١١٧) الكشف والبيان: ٧/ ١٠٩.

(١١٨) الدر المصون: ٨/ ١٨٣.

فَيَكُونُ مِن الغَالِبِ لَا مِن القَلِيلِ، وَكَانَ سِرُّ الحَذفِ تَعظِيمَ الصَّلاةِ لِأَنَّهَا مَعَ نَقْصِهَا عَن صَلَاتِنَا -لَمَّا أَشَارَ إِلَيهِ الحَذْفُ- بِهَذِهِ المَنْزِلَةِ مِن العَظَمَةِ فَمَا الظَّنُّ بِصَلَاتِنَا))[١١٩]. أَي أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ اخْتَارَ المَصْدَرَ (إِقَام) بِصِيغَةِ التَّذكِيرِ لِأَنَّهُ يَصُبُّ فِي إِضْفَاءِ قُوَّةٍ عَلَى التَّعبِيرِ فِي الحَثِّ عَلَى الصَّلَاةِ وَالالْتِزَامِ بِهَا.

٩. ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾[سورة الروم: ٤٢].

أُسْقِطَت التَّاءُ مِن الفِعلِ (كَانَ) لِأَنَّ تَأنِيثَ (عَاقِبَة) غَيرُ حَقِيقِيٍّ[١٢٠]، أَو لِأَنَّ العَاقِبَةَ بِمَعنَى المَعَادِ[١٢١]، أَو المَآلِ وَالمُنْتَهَى[١٢٢]. وَقَد اخْتَارَ النَّصُّ القُرآنِيُّ الكَرِيمُ التَّعبِيرِ بِالتَّذكِيرِ عَن العَاقِبَةِ، وَقَد وَجَّهَ البِقَاعِيُّ تَذكِيرَ الفِعلِ هُنَا بِأَنَّهُ إِشَارَةً إِلَى عِظَمِ الأَمْرِ وَالحَالِ الَّذِي سَيَؤُولُونَ إِلَيهِ؛ إِذْ سَيُعَذِّبُهم اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا، قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ عَذَابُهم مَهُولاً، وَأَمْرُهُم شَدِيداً وَبِيلاً، دَلَّ عَلَيهِ بِتَذكِيرِ الفِعلِ فَقَالَ: ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ أَي آخِر أَمرِه))[١٢٣].

١٠. ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾[يس: ٧٧-٧٨].

وَجَّهَ اللُّغَوِيُّونَ حَذْفَ التَّاءِ مِن (رَمِيم) بِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَن فَاعِلَة، فَأُسْقِطَت التَّاءُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ مَعْدُولٌ عَن أَصْلٍ؛ قَالَ القُرطُبِيُّ: ((وَإِنَّمَا قَالَ رَمِيمٌ وَلَمْ يَقُلْ رَمِيمَةٌ، لِأَنَّهَا مَعْدُولَةٌ عَنْ فَاعِلَةٍ، وَمَا كَانَ مَعْدُولًا عَنْ وَجْهِهِ وَوَزْنِهِ كَانَ مَصْرُوفًا عَنْ إِعْرَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[سورة مريم: ٢٨] أَسْقَطَ الْهَاءَ، لِأَنَّهَا مَصْرُوفَةٌ عَنْ بَاغِيَةٍ))[١٢٤]. وَلَعَلَّهُ صِفَةٌ عَلَى وَزْنِ

(١١٩) نظم الدرر: ١٢/ ٤٤٩-٤٥٠.

(١٢٠) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣/ ١٨١، ومشكل إعراب القرآن: ١/ ٢٤٦، والكشاف: ٣/ ٣٨١، والتبيان في إعراب القرآن: ١/ ٤٨٣، والدر المصون: ٤/ ٥٤٨.

(١٢١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ١/ ٤٨٣.

(١٢٢) ينظر: الدر المصون: ٤/ ٥٤٨.

(١٢٣) نظم الدرر: ١٥/ ١٠٧.

(١٢٤) تفسير البغوي: ٤/ ٢٣، وينظر:

(فَعِيل) بِمَعْنَى (فَاعِل) صَارَ اسْمًا بِالغَلَبَةِ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى التَّأْنِيْث، أَو هُوَ (فَعِيل) بِمَعْنَى (مَفعُول)، فَيَسْتَوِي فِيهِ التَّذكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ[١٢٥]، أَو أَنَّ التَّاءَ أُسْقِطَت مِنْهُ لِأَنَّه وَقَعَ خَبَرًا لِلْمُبْتَدَأ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّأْنِيثِ[١٢٦]، أَو أَنَّهَا شُبِّهَتْ بـ(فَعِيل) الَّذِي بِمَعْنَى مَفْعُول[١٢٧]. وَرَأَى البِقَاعِيُّ أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ أَرَادَ الدَّلَالَةَ عَلَى أَنَّ العِظَامَ أَصْلَبُ شَيءٍ فِي الجِسْم وَأَبْعَدُ شَيءٍ عَن الحَيَاة، مُبَالَغَةً فِي مَوَاتِهَا وَافْتِقَارِهَا لِأَيِّ صُورَةٍ مِن صُوَرِ الحَيَاة فَحَذَفَ التَّاءَ لِلإِيْحَاءِ بِهَذَا المَعْنَى؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَتِ العِظَامُ أَصْلَبَ شَيْءٍ وَأَبْعَدَهُ عَن قَبُولِ الحَيَاةِ لَاسِيَّمَا إِذَا بَلِيَتْ وَأُرْفِتَت قَالَ: (العِظَام وَهِيَ) وَلَمَّا أَخْبَرَ عَن المؤَنَّث بِاسْم مَا بَلِيَ من العِظَام غَير صِفَة، لَم يُثْبِتْ تَاءَ التَّأنِيث فَقَالَ: (رَمِيم) أَي صَارَتْ تُرَابًا يَمُرُّ مَعَ الرِّيَاح))[١٢٨]. فَقَد دَلَّ اخْتِيَارُ التَّعبِيرِ بِالتَّذْكِيرِ هُنَا -فِي نَظَرِ البِقَاعِيِّ- عَلَى قُوَّةِ الشَّيْءِ وَصَلَابَتِه.

١١. ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾[سورة الزمر: ١٩].

أُسْقِطَتِ التَّاءُ مِن الفِعْلِ (حَقَّ) عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ فَاعِلَهُ مُؤَنَّثٌ مَجَازِيٌّ: (كَلِمَة)، وَذَلِكَ لِوُجُودِ الفَاصِلِ المتَمَثِّلِ بِالجَارِّ وَالمجْرُورِ (عَلَيه)، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة الزمر: ٧١]، لِأَنَّهُ لَم يَفْصِلْ بَيْنَ الفِعْلِ وَفَاعِلِه فَاصِلٌ[١٢٩]. وَهَذَا التَّعْلِيلُ اللُّغَوِيُّ مَبْنِيٌّ عَلَى الأُسُسِ المتَعَارَفِ عَلَيهَا عِندَ

(١٢٥) ينظر: أنوار التنزيل: ٤/ ٢٧٤، و السراج المنير: ٣/ ٣٦٥.

(١٢٦) ينظر: الكشاف: ٤/ ٣١، والبحر المحيط: ٩/ ٨٤.

(١٢٧) توضيح المقاصد والمسالك: ٣/ ١٣٥٥.

(١٢٨) نظم الدرر: ١٦/ ١٧٩.

(١٢٩) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٤٥.

الكشف والبيان: ٨/ ١٣٧، والوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٣/ ٥٢٠، والكشاف: ٤/ ٣١، وزاد المسير: ٣/ ٥٣٣ -٥٣٤، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٠٨٦، والجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٥٨، ومدارك التنزيل: ٣/ ١١٤، والدر المصون: ٩/ ٢٨٦، واللباب في علوم الكتاب: ١٦/ ٢٦٥، و إرشاد العقل السليم: ٧/ ١٨١، وروح المعاني ١٢/ ٥٣.

اللُّغَوِيِّينَ. في حين يَرَى البقَاعِيُّ أَنَّ التَّاءَ أُسْقِطَتْ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى اللِّين، وَهِيَ دَلَالَةٌ لَا تُنَاسِبُ سِيَاقَ الوَعِيدِ وَالتَّرْهِيب؛ قَالَ: ((وكانﷺ لَمَّا جُبِلَ عَلَيهِ من عَظِيم الرَّحمَة وَمَزِيد الشَّفَقَة جَدِيرًا بِالأَسَفِ عَلَى مَن أَعْرَضَ،... ، (أَفَمَن حَقَّ) وَأَسْقَطَ تَاءَ التَّأْنِيثِ الدَّالَّةَ عَلَى اللِّين تَأْكِيدًا لِلنَّهْيِ عَنِ الأَسَفِ عَلَيهِم))[١٣٠].

١٢. ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [سورة غافر: ٥١ -٥٢].

يَجُوزُ فِي الفِعْلِ (يَنْفَع) فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ أَنْ تَلْحَقَهُ تَاءُ التَّأنِيثِ وَأَنْ يُجَرَّدَ مِنْهَا، وَقَد ((قَرَأَ ابْن كثير وَأَبُو عَمْرو وَابْن عَامر (لَا تَنْفَع) بِالتَّاءِ))[١٣١]. وَقَد جَازَ التَّذكِيرُ لِوُجُودِ فَاصِلٍ بَيْنَ الفِعْلِ وَالفَاعِلِ (مَعْذِرَتهم)[١٣٢]، أَو لِأَنَّ المَعْذِرَةَ مَحْمُولَةٌ عَلَى مَعْنَى الاعْتِذَار[١٣٣].

وَقَد جَعَلَ البقَاعِيُّ تَذْكِيرَ الفِعْلِ (يَنْفَع) دَلِيلًا عَلَى أَنَّ المَعْذِرَةَ، فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ، مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ يَتَضَمَّنُ الحَدَثَ: اعْتِذَارَهُم وَزَمَانَهُ وَمَكَانَهُ، وَلَيْسَ مَصدَرًا فَقَط يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الحَدَثِ مُجَرَّدًا مِن الزَّمَانِ وَالمَكَانِ؛ قَالَ: (((مَعذِرَتهم) أَي اعْتِذَارهُم وَزَمَانه وَمَكَانه -بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ كَونُ المَصْدَرِ مِيمِيًّا... -بِمَا أَشَارَت إِلَيه قِرَاءَةُ التَّذكِيرِ لِلفِعْلِ فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّهُم لَا يَجِدُونَ دِفَاعًا بِغَيرِ الاعْتِذَارِ وَأَنَّهُ غَيرُ نَافِعِهِم لِأَنَّهُم لَا يَعْتَذِرُونَ إِلَّا بِالكَذِبِ))[١٣٤].

١٣. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ

(١٣٠) نظم الدرر: ١٦/ ٤٨١.
(١٣١) السبعة في القراءات: ٥٧٢، وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٢٣، ومدارك التنزيل: ٣/ ٢١٦.
(١٣٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٢٩، وأوضح المسالك: ٢/ ١١٠، وشرح التصريح: ١/ ٤١٥.
(١٣٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٥٢٤.
(١٣٤) نظم الدرر: ١٧/ ٨٨.

﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾[سورة غافر: ٧٩-٨١].

ذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ أَنَّ اسْتِعْمَالَ (أَي) فِي قَولِه : (فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ) بِالتَّذكِيرِ جَاءَ عَلَى اللُّغَةِ المَشْهُورَةِ، وَتَأنِيثُهَا قَلِيلٌ؛ لِأَنَّ تَأْنِيثَ (أَي) غَرِيبٌ لِأَنَّهَا اسْمٌ مُبْهَمٌ؛ قَالَ: ((أَيَّ آيَاتِ اللهِ: جَاءَت عَلَى اللُّغَةِ المستَفِيضَةِ. وَقَولُك: فَأَيَّةُ آيَاتِ اللهِ قَلِيلٌ، لِأَنَّ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ المذَكَّرِ وَالمؤَنَّثِ فِي الأَسْمَاءِ غَيرِ الصِّفَاتِ نَحْو حِمَار وَحِمَارَة غَرِيبٌ، وَهِيَ فِي أَي أَغْرَبُ لِإِبْهَامِه))[١٣٥]. وَبَسَطَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور هَذَا الأَمْرَ وَزَادَهُ تَوْضِيحًا؛ قَالَ: ((وَالأَكْثَرُ فِي اسْتِعْمَالِ (أَيٍّ) إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى اسْمٍ مُؤَنَّثٍ اللَّفْظِ أَنْ لَا تَلْحَقَهَا هَاءُ التَّأْنِيثِ اكْتِفَاءً بِتَأْنِيثِ مَا تُضَافُ إِلَيْهِ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَيْسَتْ بِصِفَاتٍ أَنْ لَا يُفَرَّقَ بَيْنَ مُذَكَّرِهَا وَمُؤَنَّثِهَا بِالْهَاءِ نَحْوَ حِمَارٍ فَلَا يُقَالُ للمؤنث حمارة. و (أيّ) اسْمٌ وَيَزِيدُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِبْهَامِ فَلَا يُفَسِّرُهُ إِلَّا الْمُضَافُ إِلَيْهِ فَلِذَلِكَ قَالَ هنا أَيَّ آيَاتِ اللَّهِ دُونَ: فَأَيَّةَ آيَاتِ اللَّهِ، لِأَنَّ إِلْحَاقَ عَلَامَةِ التَّأْنِيثِ ب (أَي) فِي مِثْلِ هَذَا قَلِيلٌ، وَمِنْ غَيْرِ الْغَالِبِ تَأْنِيثُ (أَيٍّ) فِي قَوْلِ الْكُمَيْتِ[١٣٦]:

بِأَيِّ كِتَابٍ أَمْ بِأَيَّةِ سُنَّةٍ
تَرَى حُبَّهُمْ عَارًا عليّ وتحسب))[١٣٧].

وَعَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ الأَكثَرَ فِي اللُّغَةِ هُوَ اسْتِعْمَالُ (أَي) بِالتَّذْكِيرِ دُوْنَ التَّأنِيثِ، فِي غَيْرِ النِّدَاءِ، كَمَا اتَّضَحَ مِن كَلَامِ العُلَمَاءِ، إِلَّا أَنَّ البِقَاعِيَّ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ تَجْرِيدَ (أَي) مِن عَلَامَةِ التَّأْنِيثِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَثْرَةِ الآيَاتِ وَعَظَمَتِهَا؛ قَالَ: ((قَولُه: (وَيُرِيكُم) أَي فِي لَحْظَةٍ (آيَاتِه) أَي الكَثِيرَةِ الكَبِيرَةِ فِيهَا وَفِي غَيرِهَا مِن أَنْفُسِكُم وَمِن الآفَاقِ، وَدَلَّ عَلَى كَثْرَةِ

(١٣٥) الكشاف: ٤/ ١٨١. وينظر: مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٥٣٤، ومدارك التنزيل: ٣/ ٢٢٣، والبحر المحيط: ٩/ ٢٧٦، والدر المصون: ٩/ ٥٠٢، واللباب في علوم الكتاب: ١٧/ ٩١، والسراج المنير: ٣/ ٤٩٩، وروح البيان: ٨/ ٢١٩، وإعراب القرآن وبيانه: ٨/ ٥٢٤.

(١٣٦) البيت للكميت في: المحتسب: ١/ ١٨٣، وخزانة الأدب: ٩/ ١٣٧، وينظر المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية: ١/ ٢١٥.

(١٣٧) التحرير والتنوير: ٢٤/ ٢١٩.

الآيَاتِ وَعَظَمَتِهَا بِإِسْقَاطِ تَاءِ التَّأْنِيثِ، كَمَا هُوَ المُسْتَفِيضُ فِي غَيرِ النِّدَاءِ))[١٣٨].

١٤. ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[سورة الشورى: ١ -٥].

الْتَفَتَ اللُّغَوِيُّونَ إِلَى أَنَّ الفِعْلَ مَعَ (المَلَائِكَة) يَجُوزُ فِيهِ التَّذكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ؛ قَالَ الفَرَّاءُ: ((وَقَولُه: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[سورة آل عمران: ٣٩]، يُقْرَأُ بِالتَّذكِيرِ وَالتَّأنِيثِ. وَكَذَلِكَ فِعْلُ المَلَائِكَةِ وَمَا أَشْبَهَهم مِن الجَمْعِ: يُؤَنَّثُ وَيُذَكَّر. وَقَرَأَت القُرَّاءُ: (يَعْرُجُ المَلَائِكَةُ)، وَ﴿ تَعْرُجُ ﴾[سورة المعارج: ٤] و ﴿ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [سورة النحل: ٢٨]، و(يَتَوَفَّاهُم المَلائِكَةُ) وَكُلٌّ صَوَابٌ. فَمَن ذَكَّرَ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى التَّذْكِيرِ، وَمَن أَنَّثَ فَلِتَأْنِيثِ الاسْمِ))[١٣٩]. وَقَد جَعَلَ البِقَاعِيُّ التَّعبِيرَ عَن المَلَائِكَةِ بِالتَّذكِيرِ، فَقَالَ: (المَلائِكَة يُسَبِّحُونَ) فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، عُدُولًا مَقصُودًا عَن التَّأنِيثِ الجَائِزِ: (المَلائِكة تُسَبِّحُ) لِلإِشَارَةِ إِلَى كَثْرَةِ المُسَبِّحِينَ وَقُوَّةِ التَّسبِيحِ؛ قَالَ: ((وَعَدَلَ عَن التَّأنِيثِ مُرَاعَاةً لِلّفظِ إِلَى التَّذكِيرِ وَضَمِيرِ الجَمعِ، إِشَارَةً إِلَى قُوَّةِ التَّسبِيحِ وَكَثْرَةِ المُسَبِّحِينَ فَقَالَ: (يُسَبِّحُونَ) أَي يُوقِعُونَ التَّنْزِيهَ وَالتَّقْدِيسَ لله سُبحَانَهُ))[١٤٠]. وَالبِقَاعِيُّ يُشِيرُ، هُنَا، إِلَى فِكْرَةِ العُدُولِ عَن تَعبِيرٍ إِلَى آخَرَ لِغَايَاتٍ جَمَالِيَّةٍ وَبَلَاغِيَّةٍ مِمَّا يَدْخُلُ فِي بَابِ الجَمَالِيَّاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ، مِن خِلَالِ المُفَاضَلَةِ البَلَاغِيَّةِ بَيْنَ التَّذْكِيرِ وَالتَّأنِيثِ فِي ضَوْءِ السِّيَاقِ القُرآنِيِّ لِلنَّصِّ.

١٥. ﴿ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[سورة الزخرف: ١١].

وَصَفَ النَّصُّ الكَرِيمُ البَلْدَةَ المُؤَنَّثَةَ

(١٣٨) نظم الدرر: ١٧/ ١٢٤ -١٢٥.

(١٣٩) معاني القرآن للفراء: ١/ ٢١٠، وينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٤٠٥، وإعراب القرآن للنحاس: ١/ ١٥٦، والوسيط في تفسير القرآن المجيد: ١/ ٤٣٣.

(١٤٠) نظم الدرر: ١٧/ ٢٤٣.

بِمُذَكَّرٍ، هُوَ: (مَيْتًا)، وَفَسَّرَ أَكْثَرُ اللُّغَوِيِّينَ وَالمفَسِّرِينَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ مِن بَابِ الحَمْلِ عَلَى المعْنَى، لِأَنَّ البَلْدَةَ وَالبَلَدَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ[١٤١]، أَو لِأَنَّ البَلْدَةَ بِمَعنَى المكَانِ وَالقُطْرِ وَالموْضِعِ[١٤٢]. وَذَهَبَ ابنُ جني إِلَى أَنَّ كَلِمَةَ (مَيِّت) لَمَّا خُفِّفَتْ أَشْبَهَتِ المصْدَرَ، كَالبَيْعِ وَالضَّرْبِ وَالموْتِ، فَيَستَوِي فِيهَا التَّذكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ، وَمِن ثَمَّ يَكُونُ تَذْكِيرُ المصْدَرِ، إِذَا وَقَعَ وَصْفًا لِمُؤَنَّثٍ غَيْرَ، مُسْتَنْكَرٍ عِنْدَئِذٍ[١٤٣].

وَوَجَدَ البَقَاعِيُّ فِي تَذكِيرِ (مَيْتًا) صِفَةً لـ(البَلْدَة)، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذِهِ البَلْدَةَ بَلَغَتِ الغَايَةَ فِي الضَّعْفِ وَالجُوْعِ وَالقَحْطِ؛ قَالَ: (((بَلْدَة) أَي مَكَانًا يَجْتَمِعُ النَّاسُ فِيهِ لِلإِقَامَةِ مُعْتَنُونَ بِإِحْيَائِهِ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى دَوَامِ إِبْقَائِهِ (مَيتًا) أَي كَانَ قَد يَبِسَ نَبَاتُهُ وَعَجزَ أَهْلُهُ عَن إِيْصَالِ المَاءِ إِلَيهِ لِيُحْيَى بِهِ، وَلَعَلَّهُ أَنَّثَ البَلَدَ وَذَكَّرَ الميْتَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ بُلُوغَهَا فِي الضَّعْفِ وَالموْتِ بَلَغَ الغَايَةَ بِضَعْفِ أَرْضِهِ فِي نَفْسِهَا وَضَعْفِ أَهْلِهِ عَن إِحْيَائِهِ وَقَحْطِ الزَّمَانِ وَاضْمِحْلَالِ مَا كَانَ بِهِ مِن النَّبَاتِ))[١٤٤]. فَقَد رَأَى البِقَاعِيُّ هُنَا أَنَّ البَلْدَةَ أُنِّثَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ضَعْفِهَا وَبُلُوغِهَا حَالَةَ الموْتِ، وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ جَاءَ بِالميْتِ مُذَكَّرًا دَلَالَةً عَلَى تَمَكُّنِهِ مِن البَلْدَةِ وَقُوَّتِهِ وَشُمُولِهِ نَبَاتَهَا وَأَهْلَهَا، وَمِن ثَمَّ فَإِنَّ التَّذْكِيرَ هُنَا صَبَّ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى تَوكِيدِ مَوْتِ هَذِهِ البَلْدَةِ

(١٤١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٧١، والكشاف: ٣/ ٢٨٤، والمحرر الوجيز: ٥/ ١٥٨، وزاد المسير: ٣/ ٣٢٣، والجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٥٦، وأنوار التنزيل: ٤/ ١٢٧، ومدارك التنزيل: ٢/ ٥٤٢، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٢٢٤، وروح المعاني ١٣/ ٦٧.

(١٤٢) ينظر: الكشف والبيان: ٧/ ١٤٠، والوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٣/ ٣٤٢، وغرائب التفسير: ٢/ ١٠٦٠، وتفسير البغوي: ٣/ ٤٥١، والمحرر الوجيز: ٥/ ١٥٨، وزاد المسير: ٣/ ٣٢٣، والجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٥٦، ومدارك التنزيل: ٢/ ٥٤٢، والبحر المحيط: ٩/ ٣٦١، واللباب في علوم الكتاب: ١٨/ ٢١، والبرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٥٩، والإتقان في علوم القرآن: ٣/ ١٣٣، وروح المعاني ١٣/ ٦٧.

(١٤٣) ينظر: المحتسب: ٢/ ٢٥٤، وبصائر ذوي التمييز: ٤/ ٥٣٦.

(١٤٤) نظم الدرر: ١٧/ ٣٩٢.

وَرَسْم صُورَةٍ قَاسِيَةٍ لَهَا، وَعَلَى الرَّغْم من ذَلِكَ فَإِنَّ قُدْرَةَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَبْعَثُ فِيْهَا الحَيَاةَ مُتَمَثِّلَةً بِالماءِ المَنزَّل من السَّمَاءِ.

١٦. ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾

[سورة الزخرف: ١٢-١٣].

وَجَّهَ النَّحْوِيُّونَ مَجِيءَ الضَّمِيرِ (الهَاءِ) فِي (ظُهُوره)، فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ، مُذَكَّرًا بِأَنَّهُ أَضَافَ الظُّهُورَ إِلَى وَاحِدٍ فِيهِ مَعْنَى الْجَمْعِ؛ وكَأَنَّهُ اسْمُ جِنْسٍ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْجَيْشِ وَالْجُنْدِ[١٤٥]، أَو بِأَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى (مَا) فِي: (مَا تَركَبُونَ)، وَلَيسَ عَلَى الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ[١٤٦]، أَو بِأَنَّ ((هَذَا التَّأْنِيثَ لَيْسَ تَأْنِيثًا حَقِيقِيًّا فَجَازَ أَنْ يَخْتَلِفَ اللَّفْظُ فِيهِ كَمَا يُقَالُ عِنْدِي مِنْ النِّسَاءِ مَنْ يُوَافِقُكَ))[١٤٧].

وَلَمْ يَبْحَثِ البِقَاعِيُّ عَن تَعْلِيلٍ لِتَذكِيرِ الضَّمِيرِ، أَو لِاخْتِيَارِ أَحَدِ الأَوْجُهِ الَّتِي ذُكِرَت سَابِقًا، وَإِنَّمَا وَجَدَ فِي العُدُولِ إِلَى الضَّمِيرِ المُذَكَّرِ دَلَالَةً عَلَى قُوَّةِ المَرْكُوبِ؛ لِأَنَّ الذَّكَرَ أَقْوَى من الأُنْثَى؛ قَالَ: ((وَأَفْرَدَ الضَّمِيرَ رَدًّا عَلَى اللَّفْظِ دَلَالَةً عَلَى كَمَالِ القُدْرَةِ بِعَظِيمِ التَّصْرِيفِ بَرًّا وَبَحْرًا أَو تَنْبِيهًا بِالتَّذْكِيرِ عَلَى-قُوَّةِ المَرْكُوبِ لِأَنَّ الذَّكَرَ أَقْوَى مِن الأُنْثَى))[١٤٨].

١٧. ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ

(١٤٥) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/ ٢٨، وإعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٦٧، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٣٩، والكشف والبيان: ٨/ ٣٢٩، و مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٦٢١، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٦٥.

(١٤٦) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ٢٠٢، ومعاني القرآن للأخفش: ٢/ ٥١٣، وجامع البيان: ٢١/ ٥٧٤، وإعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٦٧، والكشف والبيان: ٨/ ٣٢٩، و تفسير البغوي: ٤/ ١٥٥، والمحرر الوجيز: ٥/ ٤٨، وزاد المسير: ٤/ ٧٣، ومفاتيح الغيب: ٢٧/ ٦٢١، والبحر المحيط: ٤/ ٦٦١، والدر المصون: ٥/ ١٨٥، واللباب في علوم الكتاب: ٨/ ٤٦٣، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ٤١.

(١٤٧) مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٦٢١.

(١٤٨) نظم الدرر: ١٧/ ٣٩٤.

ذِكْرَىٰهُمْ ﴾[سورة محمد: ١٨].

وَأَشْرَاطُ السَّاعَةِ: عَلَامَاتُهَا(١٤٩).

وَهِيَ جَمْعُ تَكْسِيرٍ يَجُوزُ مَعَهُ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ. وَقَد وَرَدَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِالتَّذْكِيرِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ، فَقَالَ: (جَاءَ)، وَلَم يَقُلْ: (جَاءَت). وَيَرَى البِقَاعِيُّ أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ أَسْقَطَ تَاءَ التَّأْنِيثِ مِن الفِعْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّةِ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ وَوُضُوحِ أَمَارَاتِهَا الَّتِي تُنْذِرُ بِعِظَمِ أَهْوَالِهَا؛ قَالَ: ((وَدَلَّ عَلَى القُوَّةِ بِتَذْكِيرِ الفِعْلِ فَقَالَ: (جَاءَ أَشْرَاطُهَا) أَي عَلَامَاتُهَا المُنْذِرَاتُ بِهَا))(١٥٠).

١٨. ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[سورة القمر: ١٩ – ٢٠].

جَاءَ الوَصْفُ (مُنْقَعِر) مُذَكَّرًا عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ مَوصُوفَهُ (نَخْل) اسْمُ جِنْسٍ، يَجُوزُ فِيهِ التَّذكِيرُ حَمْلًا عَلَى اللَّفْظِ وَالتَّأنِيثِ حَمْلًا عَلَى المَعْنَى(١٥١)، وَقَد وَرَدَ مُؤَنَّثًا فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[سورة الحاقة: ٧]. وَقَد يَكُونُ التَّذكِيرُ وَالتَّأنِيثُ، فِي النَّخْلِ، لُغَتَينِ لِبَعْضِ العَرَبِ(١٥٢). وَجَعَلَ الفَخْرُ الرَّازِي طَلَبَ التَّنَاسُقِ الصَّوْتِيِّ السَّبَبَ فِي تَذكِيرِ الوَصْفِ (مُنْقَعِر)؛ قَالَ: ((قَالَ هَاهُنَا:

(١٤٩) ينظر: مجاز القرآن ٢/ ٢١٥، وغريب القرآن لابن قتيبة: ٤١٠، ومعاني القرآن وإعرابه: ٥/ ١١، ومعاني القرآن للنحاس: ٦/ ٤٧٧، والنكت والعيون: ٥/ ٢٩٩، والمفردات في غريب القرآن: ٤٥٠، وزاد المسير: ٤/ ١١٨، ومفاتيح الغيب: ٢٨/ ٥١، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٤٠.

(١٥٠) نظم الدرر: ١٨/ ٢٢٨.

(١٥١) ينظر: المقتضب: ٣/ ٣٤٦، وجامع البيان: ٢/ ٢١٠، ومعاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٨٩، ٥/ ٢١٤، والأصول في النحو: ٢/ ٤١٣، والكشف والبيان: ٩/ ١٦٦، ومشكل إعراب القرآن: ٢/ ٦٩٩–٧٠٠، والمحرر الوجيز: ٥/ ٢١٦، والكشاف: ٤/ ٤٣٦، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١١٩٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ١٣٧، وأنوار التنزيل: ٥/ ١٦٦، ومدارك التنزيل: ٣/ ٤٠٣، والدر المصون: ١/ ٤٢٦، واللباب في علوم الكتاب: ١٩/ ٣١٨، والبرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٦٢، ومعترك الأقران: ٣/ ٤٧١، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ١٧١، وروح المعاني ١٤/ ٨٦، والتحرير والتنوير: ٢٧/ ١٩٤.

(١٥٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤/ ١٩٦، وزاد المسير: ٤/ ٢٠٠.

مُنْقَعِرٍ فَذَكَّرَ النَّخْلَ، وَقَالَ فِي الْحَاقَّة: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ فَأَنَّثَهَا، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: فِي تِلْكَ السُّورَة كَانَتْ أَوَاخِرُ الْآيَاتِ تَقْتَضِي ذَلِكَ لِقَوْلِه: مُسْتَمِرٌّ ومُنْهَمِرٍ ومُنْتَشِرٌ [سورة الْقَمَر: ١٩، ١١، ٧] وَهُوَ جَوَابٌ حَسَنٌ، فَإِنَّ الْكَلَامَ كَمَا يُزَيَّنُ بِحُسْنِ الْمَعْنَى يُزَيَّنُ بِحُسْنِ اللَّفْظِ))[١٥٣]. وَيَنقلُ ابنُ عَادِلٍ الحَنبَلِيُّ أَنَّ (النَّخْل) وَرَدَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ، وَهِيَ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾[سورة القمر:٢٠]، وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾[سورة ق: ١٠]، وَقَولُهُ تَعَالَى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[سورة الحاقة: ٧]، ((فَحَيثُ قَالَ: (مُنْقَعِرٍ) كَانَ المُختَارُ ذَلِكَ [أَي: التَّذكِيرَ]، لِأَنَّ (المنْقَعِر) فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ كَالمَفْعُولِ؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ عَلَيهِ (القَعْر)، فَهُوَ (مَقْعُورٌ)، وَ(الخَاوِي) وَ(البَاسِق) فَاعِل وَإِخْلَاء المفعُول مِن عَلَامَةِ التَّأنِيثِ أَولَى، تَقُولُ: امْرَأَةٌ قَتِيلٌ. وَأَمَّا (البَاسِقَاتُ) فَهِيَ فَاعِلَاتٌ حَقِيقَةً، لِأَنَّ البُسُوقَ اسْمٌ قَامَ بِهَا، وَأَمَّا الخَاوِيَةُ فَهُوَ مِن بَابِ (حَسَنِ الوَجْهِ)؛ لِأَنَّ (الخَاوِي) مَوضِعُهَا فَكَأَنَّهُ قَالَ: (نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) المَوَاضِع، وَهَذَا غَايَةُ الإِعْجَازِ حَيثُ أَتَى بِلَفْظٍ مُنَاسِبٍ لِلأَلْفَاظِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ مِن حَيْثُ اللَّفْظُ))[١٥٤].

أَمَّا البِقَاعِيُّ فَنَظَرَ إِلَى تَذكِيرِ الوَصْفِ هُنَا نَظْرَةً جَدِيدَةً، مُنْطَلِقًا فِيهَا مِن أَنَّ اللَّفْظَ يُقَابِلُ ظَاهِرَ الإِنْسَانِ وَالمَعْنَى يُقَابِلُ بَاطِنَهُ، وَمِن ثَمَّ فَقَد جَاءَ الوَصْفُ مُذَكَّرًا حَمْلًا عَلَى اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ النَّصَّ نَظَرَ إِلَى ظَاهِرِ حَالِهِم وَلَم يَنْظُرْ إِلَى بَاطِنِهَا؛ قَالَ: ((كَأَنَّهُم (أَعْجَازُ) أَي أُصُولُ (نَخْلٍ) قُطِعَتْ رُؤُوسُهَا. وَلَمَّا كَانَ الحُكْمُ هُنَا عَلَى ظَاهِرِ حَالِهِم، وَكَانَ الظَّاهِرُ دُونَ البَاطِنِ، حُمِلَ عَلَى اللَّفْظِ قَولُهُ: (مُنْقَعِرٍ)، أَي مُنْقَصِفٍ أَي مُنْصَرِعٍ مِن أَسْفَلِ قَعْرِهِ وَأَصْلِ مَغْرِسِهِ، وَالتَّشْبِيهُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُم طِوَالٌ قَد قُطِعَت رُؤُوسُهُم، وَفِي (الحَاقَّةِ) وَقَعَ التَّشْبِيهُ فِي البَاطِنِ الَّذِي فِيهِ الأَعْضَاءُ الرَّئِيسَةُ، وَالمَعَانِي اللَّطِيفَةُ، فَأَنَّثَ الوَصْفَ حَمْلًا عَلَى مَعْنَى النَّخْلِ لَا

(١٥٣) مفاتيح الغيب: ٢٩/ ٣٠٤.

(١٥٤) اللباب في علوم الكتاب: ١٨/ ٢٥٨.

لِلُطْفِهَا -وَاللهُ أَعْلَم))[١٥٥]. وَهَذَا الَّذِي يَذكُرُهُ البِقَاعِيُّ هُنَا نَظَرٌ لَطِيفٌ وَجَدِيدٌ، يَقْتَرِبُ من مَذَاهِبِ الصُّوفِيَّةِ، حَيْثُ جَعَلَ لِلُّغَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ فَالظَّاهِرُ مَحْمُولٌ عَلَى ظَاهِرِ المتَكَلِّم، والبَاطِنُ مَحْمُولٌ عَلَى بَاطِنِه.

١٩. ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [سورة الحديد: ٢٢].

أُسْقِطَتِ التَّاءُ من الفِعْلِ (أَصَابَ) هُنَا، وَهُوَ جَائِزُ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيث، لِأَنَّهُ مَفْصُولٌ عَنِ الفَاعِلِ بِفَاصِلٍ[١٥٦]، وَمِن التَّأنِيثِ، فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيب، قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ [سورة الحجر: ٥]، غَيرَ أَن البِقَاعِيَّ يَرَى أَنَّ تَذكِيرِ الفعلَ هُنَا إِشَارَةٌ إِلَى عِظَمِ وَقْعِ الشَّرِّ؛ قَالَ: ((وَذكَّرَ فِعلَ المؤَنَّثِ الجَائِزِ التَّذكِيرِ لِكَونِ التَّأنِيثِ غَيرَ حَقِيقِيٍّ إِشَارَةً إِلَى عِظَمِ وَقْعِ الشَّرِّ: (مَا أَصَابَ) وَأَكَّدَ النَّفْيَ فَقَالَ: (مِن مُصِيبَة) وَهِيَ فِي الأَصْلِ لِكُلِّ آتٍ مِن خَيْرٍ أَو شَرٍّ إِلَّا أَنَّ العُرْفَ خَصَّهَا بِالشَّرِّ))[١٥٧].

٢٠. ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

يَجُوزُ إِلْحَاقُ تَاءِ التَّأنِيثِ بِالفِعْلِ (بَدَا) وَتَجْرِيدُهُ مِنْهَا، لِأَنَّ تَأْنِيثَ (العَدَاوَة) غَيْرُ حَقِيقِيٍّ[١٥٨]، وَلِوُجُودِ فَاصِلٍ بَيْنَ الفِعْلِ وَفَاعِلِه. وَرَأَى البِقَاعِيُّ أَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ اخْتَارَ تَذكِيرَ الفِعلِ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّةِ العَدَاوَةِ بَيْنَ المؤمِنِينَ وَالكَافِرِينَ وَإِنْ كَانَتْ مَسْتُورَةً؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ المؤْمِنُ عَلَى جِبِلَّةٍ مُضَادَّةٍ لِجِبِلَّةِ الكَافِرِ، عَبَّرَ بِمَا يُفْهِمُ

(١٥٥) نظم الدرر: ١٩/ ١١٥ -١١٦.
(١٥٦) ينظر: البحر المحيط: ١٠/ ١١١، وروح المعاني: ١٤/ ١٨٦.
(١٥٧) نظم الدرر: ١٩/ ٢٩٤.
(١٥٨) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز: ٥/ ٢٩٥.

أَنَّ العَدَاوَةَ كَانَتْ مَوجُودَةً وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مَسْتُورَةً، فَقَالَ دَالًّا عَلَى قُوَّتِهَا بِتَذكِيرِ الفِعْلِ: (وَبَدا) أَي ظَهَرَ ظُهُورًا عَظِيمًا))[١٥٩].

٢١. ﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[سورة القلم: ٤٩ – ٥٠].

يَجُوزُ إِسْقَاطُ تَاءِ التَّأْنِيثِ مِن الفِعْلِ (تَدَارَكَه)، كَمَا فِي هَذِهِ القِرَاءَةِ، وَيَجُوزُ إِلْحَاقُهَا بِهِ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابنِ عَبَّاس وَابنِ مَسْعُود وَأُبَيّ بن كَعْب: (تَدَارَكَتْهُ)[١٦٠]، وَتَوجِيهُ التَذكِيرِ أَنَّ النِّعْمَةَ مُؤَنَّثٌ غَيرُ حَقِيقِيٍّ[١٦١]، أَو أَنَّ الفَصْلَ حَسَّنَ تَذكِيرَ الفِعلِ[١٦٢]. فِي حِين لَمَسَ البِقَاعِيُّ فِي إِسْقَاطِ التَّاءِ مِن الفِعْلِ (تَدَارَكَهُ) دَلَالَةً عَلَى تَعْظِيمِ الإِحْسَانِ؛ قَالَ: ((وَعَظَّمَ الإِحْسَانَ بِالتَّذكِيرِ وَصِيغَةِ التَّفَاعُلِ فَقَالَ: (تَدَارَكَهُ) أَي أَدْرَكَهُ إِدْرَاكًا عَظِيمًا))[١٦٣].

٢٢. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[سورة الحاقة: ١٣].

جَاءَ الفِعْلُ (نُفِخَ) مُذَكَّرًا، لِأَنَّ الفَاعِلَ مَجَازِيُّ التَّأْنِيثِ[١٦٤]، وَمَفْصُولٌ عَن الفَاعِلِ بِفَاصِلٍ[١٦٥]. وَيَرَى البِقَاعِيُّ أَنَّ تَذْكِيرَهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّةِ النَّفْخَةِ؛ قَالَ: ((وَذَكَّرَهُ وَإِنْ كَانَ المُسْنَدُ إِلَيْهِ مُؤَنَّثًا لِلْفَصْلِ وَلِكَوْنِهِ غَيْرَ حَقِيقِيِّ التَّأْنِيثِ وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّةِ النَّفْخِ))[١٦٦].

٢٣. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ

(١٥٩) نظم الدرر: ١٩/ ٤٩٧.
(١٦٠) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/ ١٧٨، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٥٤، وزاد المسير: ٤/ ٣٢٦.
(١٦١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٥/ ١٢، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٥٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٥٤.
(١٦٢) ينظر: الكشاف: ٤/ ٥٩٦، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٦١٧، وأنوار التنزيل: ٥/ ٢٣٧، و إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩.
(١٦٣) نظم الدرر: ٢٠/ ٣٣٢.
(١٦٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٢١٦، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٥٧، وروح المعاني: ١٥/ ٥٠.
(١٦٥) ينظر: الكشاف: ٤/ ٦٠١، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٦٢٤، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٥٧، وروح المعاني: ١٥/ ٥٠.
(١٦٦) نظم الدرر: ٢٠/ ٣٥٢.

شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾[سورة المزمل: ١٥ -١٩].

فَسَّرَ اللُّغَوِيُّونَ مَجِيْءَ الخَبَرِ (مُنْفَطِر) مُذَكَّرًا عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّهُ خَبَرٌ لِمُؤَنَّث، وَهُوَ: (السَّمَاء)، بِأَقْوَالٍ؛ مِنْهَا أَنَّ السَّمَاءَ مِمَّا يَجُوزُ فِيهِ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ[١٦٧]، أَو أَنَّهَا مُؤَنَّثٌ مَجَازِيٌّ وَيَخْلُو مِن عَلَامَةِ التَّأْنِيثِ فَأَشْبَهَتِ المُذَكَّرَ فَجَازَ فِيهِ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ[١٦٨]، أَو بِحَمْلِ السَّمَاءِ عَلَى مَعْنَى السَّقْفِ[١٦٩]، أَو عَلَى أَنَّ (مُنْفَطِر) هُنَا جَاءَتْ عَلَى مَعْنَى النَّسَبِ، كَمَا قَالُوا: امْرَأَةٌ مُرْضِع، أَي ذَاتُ إِرْضَاعٍ[١٧٠]، أَو عَلَى إِضْمَارِ شَيْءٍ، أَي: السَّمَاء شَيْءٌ مُنْفَطِرٌ بِهِ[١٧١]، أَو عَلَى أَنَّهُ اسْمُ جِنْسٍ يَجُوزُ فِيهِ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ[١٧٢]. وَذَهَبَ البِقَاعِيُّ إِلَى أَنَّ النَّصَّ اخْتَارَ التَّذْكِيرَ لِلإِشَارَةِ إِلَى

(١٦٧) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ١٢٧، وإعراب القرآن للنحاس: ٥/ ٤٢، والكشف والبيان: ١/ ١٦٣، و مشكل إعراب القرآن: ٢/ ٧٦٩، وتفسير البغوي: ١/ ٩١، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٨٩، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٦٩٣، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٢٤٨، و البرهان في علوم القرآن :٣/ ٣٦٢.

(١٦٨) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/ ١٩٩، وإعراب القرآن للنحاس: ٥/ ٤٢، و زاد المسير: ٢/ ٤٤٤، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٦٩٣.

(١٦٩) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ٢٧٤، ومعاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٢٤٣، ومشكل إعراب القرآن: ٢/ ٧٦٩، والكشاف: ٤/ ٦٤٢، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٨٩، وزاد المسير: ٤/ ٣٥٦، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٦٩٣، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٢٤٨، وأنوار التنزيل: ٥/ ٢٥٧، ومدارك التنزيل: ٣/ ٥٥٩، والبحر المحيط: ١٠/ ٣١٩، واللباب في علوم الكتاب: ١٩/ ٤٧٩، والبرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٦٢.

(١٧٠) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٢٤٣، وإعراب القرآن للنحاس: ٥/ ٤٢، ومشكل إعراب القرآن: ٢/ ٧٦٩، والكشاف: ٤/ ٦٤٢، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٦٩٣، والتبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٢٤٨، والبحر المحيط: ١٠/ ٣١٩، واللباب في علوم الكتاب: ١٩/ ٤٧٩، والبرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٦٢.

(١٧١) ينظر: أنوار التنزيل: ٥/ ٢٥٧، ومدارك التنزيل: ٣/ ٥٥٩، والبحر المحيط: ١٠/ ٣١٨، والبرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٦٢.

(١٧٢) ينظر: البحر المحيط: ١٠/ ٣١٨، واللباب في علوم الكتاب: ١٩/ ٤٧٩، والبرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٦٢.

الشِّدَّةِ العَظِيمَةِ المؤَدِّيَةِ إِلَى انْفِطَارِ السَّمَاءِ؛ قَالَ: ((وَلَمَّا كَانَ المرَادُ الجِنْسَ الشَّامِلَ لِلْكُلِّ ذَكَّرَ فَقَالَ: (مُنْفَطِر) أَي مُنْشَقّ مُتَزَايِل مِن هَيْبَةِ الرَّبِّ تَزَايُلَ المتَفَرِّطِ من السِّلْك، وَلَو أَنَّث لَكَانَ ظَاهِرًا فِي وَاحِدَةٍ من السَّمَاوَاتِ، وَفِي اخْتِيَارِ التَّذْكِيرِ أَيْضًا لَطِيفَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ إِفْهَامُ الشِّدَّةِ الزَّائِدَةِ فِي الهَولِ المؤَدِّي إِلَى انْفِطَارِه مَا هُوَ فِي غَايَةِ الشِّدَّةِ لِأَنَّ الذَّكَرَ فِي كُلِّ شيءٍ أَشَدُّ من الأُنْثَى، وَذَلِكَ كُلُّه تَهْوِيلاً لِلْيَومِ المذْكُورِ))[173].

وَقَد وَجَّهَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور، من المفَسِّرِينَ المحْدَثِينَ، هَذَا العُدُولَ عَن المؤَنَّث إِلَى المذَكَّرِ بِأَنَّهُ جَاءَ طَلَبًا لِتَخْفِيفِ الوَصْفِ (مُنْفَطِر) لِأَنَّهُ عَلَى صِيغَةٍ ثَقِيلَةٍ فِي رَأْيِه؛ قَالَ: ((وَلَعَلَّ الْعُدُولَ فِي الْآيَةِ عَنِ الاسْتِعْمَالِ الشَّائِعِ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ فِي إِجْرَاءِ السَّمَاءِ عَلَى التَّأْنِيثِ، إِلَى التَّذْكِيرِ إِيثَارًا لِتَخْفِيفِ الْوَصْفِ لِأَنَّهُ لَمَّا جِيءَ بِهِ بِصِيغَةِ مُنْفَعِلٍ بِحَرْفَيْ زِيَادَةٍ وَهُمَا الْمِيمُ وَالنُّونُ كَانَتِ الْكَلِمَةُ مُعَرَّضَةً لِلثِّقَلِ إِذَا أُلْحِقَ بِهَا حَرْفٌ زَائِدٌ آخَرُ ثَالِثٌ، وَهُوَ هَاءُ التَّأْنِيثِ فَيَحْصُلُ فِيهَا ثِقَلٌ يُجَنِّبُهُ الْكَلَامُ الْبَالِغُ غَايَةَ الْفَصَاحَةِ أَلَا تَرَى أَنَّهَا لَمْ تَجْرِ عَلَى التَّذْكِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [سورة الانفطار: ١] إِذْ لَيْسَ فِي الْفِعْلِ إِلَّا حَرْفٌ مَزِيدٌ وَاحِدٌ وَهُوَ النُّونُ إِذْ لَا اعْتِدَادَ بِهَمْزَةِ الْوَصْلِ لِأَنَّهَا سَاقِطَةٌ فِي حَالَةِ الْوَصْلِ، فَجَاءَتْ بَعْدَهَا تَاءُ التَّأْنِيثِ))[174]. أَي انَّهُ تَفْسِيرٌ صَوتِيٌّ لِتَخْفِيفِ النُّطْقِ بِالكَلِمَةِ عَلَى اللِّسَانِ. وهو تفسير وجيه ومقبول.

للبحث صلة في العدد القابل

ان شاء الله –تعالى–

(١٧٣) نظم الدرر: ٢١/ ٢٧.

(١٧٤) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢٧٦ –٢٧٧.